



كلنا لاجئون: حرب عالمية على اللاجئين

عمرو سعد الدين

حزيران بلا قتال

محمود شقير؛ نظمي الجعبة؛ فواز طرابلسي؛
إلياس فركوح؛ غازي الخليلي؛ طلال عوكل

الحزب الشيوعي في إسرائيل

هنيدة غانم

المسجد الأقصى "ميدان التحرير"

مهند مصطفى



خريف 2017

حزيران بلا قتال

قدمنا في العدد الماضي من "مجلة الدراسات الفلسطينية" مجموعة من القراءات التاريخية والثقافية عن هزيمة الخامس من حزيران/يونيو في ذكراها الخمسين.

الهزيمة التي خلخلت توازنات المنطقة وقادت إلى أفول الحركة القومية، لا تزال في حاجة إلى دراسة علمية تستخلص النتائج والعبر وتحدد المسؤوليات، وتطرح أسئلتها عن القضايا الكبرى التي لا يزال المشرق العربي في حاجة إليها لمواجهة التفكك والأفول وحضيض الانحطاط.

كان ملفنا في العدد الماضي ناقصاً، وهو لن يكتمل إلاّ بعمل بحثي جاد يحتاج إلى شرطَين: فتح أرشيفات الجيوش العربية أمام الباحثات والباحثين، وزوال شبح الاستبداد الذي يعطّل أي بحث علمي لأنه يضع السلطة والجيوش والقوى الأمنية خارج المساءلة والنقد.

يحاول ملف هذا العدد: "حزيران بلا قتال"، أن يقرأ الخامس من حزيران/يونيو كمجموعة من الشهادات كتبها ستة مثقفين عن تجربتهم الشخصية خلال أيام الحرب القصيرة، وعن الكارثة التي كانت أشبه بكابوس لا نزال نعيشه إلى اليوم.

كيف سقطت القدس ونابلس وغزة؟ كيف عاشت عمّان وبيروت إيقاعات الهزيمة؟ كيف نروي ذكريات شخصية صارت جزءاً من الذاكرة الجمعية؟

اللافت أن صمتاً أدبياً مدوياً رافق الهزيمة؛ صحيح أن عدداً من المثقفين كتبوا قراءات ثقافية وسياسية للهزيمة، وصحيح أيضاً أن عدداً من الشعراء والروائيين العرب كتبوا عن بقَع الهزيمة على الجسد العربي، لكن وقائع الهزيمة ومعاركها ومآسيها الميدانية غابت بشكل شبه كامل عن الرواية العربية.

كأن الكتابات الروائية والتاريخية وجدت نفسها أمام مأزق الاستبداد الذي كان سبب الهزيمة الرئيسي، والذي أنتج صمتاً عن التفاصيل.

يحاول هذا الملف - المتواضع الأهداف - أن يكسر جدار الصمت ويجمع بعض شتات الذاكرة، فمن القدس تأتي شهادتا محمود شقير: "حزيران/يونيو.. الهزيمة من مسافة ما"، ونظمي الجعبة: "مقتطفات من يوميات فتى مقدسي"، ومن بيروت يكتب فواز طرابلسي عن "الأزرق من حزيران/يونيو ١٩٦٧"، ومن عمّان تأتي شهادة إلياس فركوح: "٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧: فتق واسع لم يُرتق بعد"، ومن نابلس يكتب غازي الخليلي: "حرب حزيران/يونيو واحتلال نابلس"، ونختتم الملف بشهادة عن غزة كتبها طلال عوكل: "كيف سقطت غزة بلا قتال".

ملفا هذا العدد والعدد الماضي هما محاولة للنظر وإعادة النظر في الهزيمة الحزيرانية، وهما مجرد حجارة نلقيها في بركة الذاكرة والبحث التاريخي، كدعوة مفتوحة إلى الكتّاب والمؤرخين الفلسطينيين والعرب، لكسر جدار الصمت الذي يحاصر الهزيمة الأكبر التي يعيشها العرب.

حزيران بلا قتال

محمود شقير*

حزيران/يونيو.. الهزيمة من مسافة ما

I

حين اندلعت الحرب صباح الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، كنت في مدرسة تراسنطة الواقعة داخل سور القدس القديمة، أراقب الطلبة المتقدمين لامتحان الشهادة الثانوية، مع عدد من زملائي المدرّسين. كانت المدينة في ذلك الصباح تحيا حياتها كالمعتاد، مع توقعات بأن حرباً في أفق منطقتنا قد تقع، لكن موعد اندلاعها لم يكن معلوماً.

وكنت مثل كثيرين على قناعة بأن الحرب باتت على الأبواب، وبأن النصر على العدو بات قاب قوسين أو أدنى.

أعلنتُ غير مرة أمام الأصدقاء (وربما أعلن آخرون غيري أمام أصدقائهم) أن ما وقع في سنة ١٩٤٨ لن يتكرر مرة ثانية. آنذاك، لم يكن ثمة استعداد كافٍ لمواجهة العدوان. كان هناك جهل بالعدو وبقدراته، وكانت الحركة الوطنية الفلسطينية بقيادتها التقليدية المحكومة بالمساومة وبالتردد، غير قادرة على تنظيم الشعب، وعلى الاستفادة من قدراته على البذل والعطاء.

اكتشفت بعد الهزيمة المدوّية التي فاقت في نتائجها القريبة والبعيدة نكبة ١٩٤٨ أنني كنت أعيش وهماً مخادعاً.

جاءت هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧ لتكسر الوهم، وفي الوقت نفسه لتكون امتداداً مرّاً لنكبة أيار/مايو ١٩٤٨، وكان قد مضى عامان على انتمائي إلى الحزب الشيوعي. وكان الحزب مثل غيره من التنظيمات السياسية السرية يعاني ضعفاً بالغاً، جرّاء أعوام الاعتقال الطويلة التي طالت كثيرين من أعضاء قيادته ومن كوادره ومنتسبيه، في حملتين ضاريتين قامت بهما أجهزة الأمن الأردنية، الأولى في سنة ١٩٥٧، والثانية في سنة ١٩٦٦. كانت تلك واحدة من مقدّمات الهزيمة على نحو ما، ولم نكن منتبهين إلى ذلك.

لم تكن الهزيمة متوقعة لدى أوساط واسعة من الناس؛ كانت أجهزة الإعلام المصرية وغيرها، ممثلة في المذياع بشكل أساسي، وفي الصحافة اليومية والأسبوعية، تمنّينا بانتصار لا تشوبه شائبة، وبأن الدخول إلى قلب تل أبيب صار هدفاً قريب المنال. كنا نترقب بلهفة تعليقات أحمد سعيد من إذاعة صوت العرب، وكانت ثقتنا بجمال عبد الناصر لا تتزعزع.

* قاصّ وروائي فلسطيني.

خطاباته المطولة أمام الجماهير المحتشدة تثير حماستنا، وتغذّي النزعة القومية الوحدوية في نفوسنا. كنت مؤمناً بقيادة عبد الناصر على الرغم من مواقفه المعادية للشيوعية التي تبنّاها في خمسينيات القرن العشرين، وفي النصف الأول من الستينيات. كنت آنذاك ناصرياً، مقتنعاً بالتهمة التي أطلقها البعثيون ضد الشيوعيين بشأن موافقتهم على الصلح مع إسرائيل، بل إنني صدقت شائعة انتشرت في سنة ١٩٥٧ - بعد الانقلاب الذي قام به الملك حسين ضد حكومة النابلسي الوطنية، وأتبعه بحظر نشاط الأحزاب السياسية - فحواها أن الدكتور يعقوب زيّادين، ممثل الحزب الشيوعي في البرلمان الأردني، مختبئ في إسرائيل، بعد أن داهمت أجهزة الأمن الأردنية بيته في القدس لاعتقاله، ضمن حملة الاعتقالات الواسعة التي ترافقت مع إعلان الأحكام العرفية. ولم تخفّ وطأة هذه الشائعة إلاّ حين قبض مخبر في جهاز المباحث ذات مساء على الدكتور زيادين في أحد شوارع رام الله.

ولم يكن أحد يتوقع أن تصبح رام الله تحت الاحتلال الإسرائيلي بعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ.

II

كان يمكنني توقّع الهزيمة لو أنني انتبهت جيداً إلى ما يحيط بي من ظواهر.

طبعاً، كان الوضع متشابكاً على نحو ما. انهارت الحداثة الناشئة في عموم البلد جرّاء النكبة، وكانت القدس تعيش مثل باقي مدن البلد تحت القمع السلطوي وهيمنة أجهزة الأمن. على الرغم من ذلك، كانت المدينة تنهض من عثرتها الفادحة، بعد أن سيطر الإسرائيليون على الجزء الغربي منها: توسع العمران فيها نحو الشرق والشمال، وظهرت أحياء جديدة خارج السور؛ انتعشت التجارة والسياحة، وازداد عدد الفنادق فيها لاستيعاب حركة السياحة النشيطة، وانتشرت المقاهي في مختلف أحيائها. وفي شارعَي صلاح الدين والزهراء كان هناك محالّ للرقص والغناء، يرتادها رجال ونساء، وكان في المدينة ثلاث دور للسينما يواظب رجال القدس ونساؤها على حضور الأفلام التي يتم عرضها فيها كل يوم بانتظام.

وظهر فيها منذ خمسينيات القرن العشرين أربع صحف يومية، هي: "الجهاد"، و"الدفاع"، و"فلسطين"، و"المنار"، وكانت الصحيفة الواحدة تصدر في أربع صفحات، وأحياناً في ست صفحات. كما ظهر فيها في أوائل الستينيات مجلة ثقافية هي "الأفق الجديد"، تجمّع حولها عدد غير قليل من الكتّاب الشباب من القدس وعمّان وغيرهما من مدن البلد التي كانت تتشكل منها المملكة الأردنية الهاشمية. وكان يرئس تحرير المجلة الشاعر أمين شنّار الذي تبوأ في زمن سابق إمارة حزب التحرير في الأردن، ثم دخل السجن بسبب انتمائه السياسي، وحين غادر السجن لم يعد إلى صفوف الحزب، لكنه بقي إسلامي النزعة مع اعتدال وانفتاح على أفكار الآخرين من يساريين وقوميين.

وكانت المجلات والكتب القادمة من بيروت والقاهرة تشد اهتمامنا نحن الجيل الذي أُطلق عليه فيما بعد "جيل الأفق الجديد". كانت مجلة "الآداب" تحديداً من أهم المجلات العربية التي تركت فينا أثراً مؤكداً، وكانت ترجمات الدكتور سهيل إدريس - صاحب "الآداب" ومحررها - لكتابات سارتر وسيمون دو بوفوار، تلفت انتباهنا إلى الوجودية، وتثير في صفوفنا نقاشات عديدة، وخصوصاً في مدى اقترابها أو ابتعادها عن الماركسية.

ومن الجانب الآخر، كانت مجلتا "الطليعة" التي يشرف عليها لطفي الخولي، و"الكاتب" التي يشرف عليها أحمد عباس صالح، تحوزان اهتمامنا. كان ثمة مناخ ثقافي يتشكل حول "الأفق الجديد"، لم يلبث أن تبدد مع توقف المجلة عن الصدور في سنة ١٩٦٦ لأسباب مالية، ومع وقوع هزيمة حزيران/يونيو التي فرّقت شمل المثقفين، وضربت استمرار الحراك الثقافي وازدهاره إلى أعوام مقبلة.

كانت القدس آنذاك مدينة تعددية بالقدر الذي تسمح به تجربتها الناشئة في العصر الحديث. لم تكن محافظة متزمتة مثلما هو حالها اليوم بعد خمسين عاماً من الاحتلال. ومن أبرز الأمثلة لانفتاح أفقها وتعدديتها، أن يعقوب زيادين، الطبيب الشيوعي الأردني الكركي المسيحي، فاز بأعلى الأصوات ممثلاً للمدينة في انتخابات البرلمان الأردني في سنة ١٩٥٦، وهناك شواهد أُخرى على التآخي الإسلامي ـ المسيحي في المدينة منذ ما قبل النكبة إلى ما بعدها.

على الصعيد السياسي، انتعشت الحياة السياسية ونشاط الأحزاب في القدس وفي عموم البلد في إثر هزيمة حلف بغداد وعدم جرّ الأردن للدخول في الحلف، وفي الأشهر القليلة التي عاشتها حكومة سليمان النابلسي الوطنية.

بعد ذلك أُعلنت الأحكام العرفية، وتسيّد القمع على مصير البلد. لكن هذا لم يمنع الأحزاب، وخصوصاً الحزب الشيوعي، من مواصلة النشاط السري، وإن كان ذلك بصعوبة بالغة. وفي سنة ١٩٦٤ شهدت القدس مؤتمراً فلسطينياً أُعلن فيه ولادة منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة أحمد الشقيري. وفي السنة نفسها، أُفرج عن المعتقلين السياسيين في سجن الجفر الأردني الصحراوي، وهم أساساً من قيادة الحزب الشيوعي وكوادره الذين مضى على اعتقالهم ثمانية أعوام.

انتعش النشاط السياسي إلى حد ما بعد هذا الإفراج، ثم جرت حملة اعتقالات جديدة في سنة ١٩٦٦ طالت الشيوعيين والبعثيين والقوميين العرب. ولم يصمد كثيرون من المعتقلين هذه المرة أمام المحققين، كما كانت حالهم من قبل. فقد عقد ضباط استخبارات جلسات تحقيق مع عدد من المعتقلين من كوادر الأحزاب وقياداتها، جرى بثّها من إذاعة عمّان، ونُشرت في الصحف، وفيها اعترافات عن الخلايا السرية، فضلاً عن الإحباط والتراجع عن القناعات. كان ذلك مؤشراً غير مريح إلى هزيمة مقبلة.

في تلك السنة، قامت وزارة الإعلام الأردنية بتقليص تمركز الصحف اليومية في القدس، فدمجت صحيفتَي "الدفاع" و"المنار" في صحيفة واحدة هي "الدستور"، ونقلت مقرها إلى عمّان، كما دمجت صحيفتَي "الجهاد" و"فلسطين" في صحيفة واحدة، هي "القدس"، وأبقت مقرها في القدس، في المبنى نفسه الذي كانت تصدر منه صحيفة "الجهاد". وأرسلت من عمّان أربعة موظفين للإشراف على الصحيفة الجديدة، بينهم محمود الكايد.

كان الكايد ممّن أمضوا ثمانية أعوام في سجن الجفر الصحراوي بتهمة الانتماء إلى الحزب الشيوعي. وقد نشأت لديه وهو في السجن وجهة نظر فحواها أن عبد الناصر، بعد التحولات التي قام بها في النصف الأول من ستينيات القرن العشرين، يبني الاشتراكية في مصر، وفي هذه الحالة لا حاجة إلى حزب شيوعي للقيام بهذه المهمة، ولا ضرورة لأن يبقى الشيوعيون في السجن. كان يجاهر بذلك في صفوف المعتقلين، لكنه لم يفكر للحظة واحدة في استنكار الحزب، وهو التقليد الذي كان متّبعاً لدى جهاز الاستخبارات الأردنية: اكتب استنكاراً للحزب وولاء لجلالة الملك، وانشره في الصحيفة المحلية، ثم تغادر السجن. لم يقبل محمود الكايد ذلك. بقي في السجن إلى أن أُعفي عنه وعن بقية المعتقلين بقرار من الملك. وحين غادر السجن لم يعد إلى صفوف الحزب.

كان ذلك مؤشراً إلى خلل ما، وكان للقمع السياسي الذي امتد وطال تأثير سلبي في انتشار النشاط الحزبي في البلد. كانت الأوضاع في البلد لا تؤهلها للصمود في وجه العدوان، والأمر نفسه كان يشوب أوضاع بلاد عربية أُخرى مع تفاوت فيما بينها، ولم نكن نرى ذلك، بسبب دخان الدعاية اليومية التي تمجّد الأنظمة والحكام المستعدين ليوم النصر المبين، يوم تحرير فلسطين.

كانت الأوهام كبيرة، ولذلك جاءت خيبة الأمل وما رافقها من إحباط ويأس وهوان أكبر وأفدح على نحو مريع.

III

مساء اليوم الأول من الحرب غادرنا بيتنا إلى أقارب لنا مقيمين على مسافة من جبل المكبر الذي يدور حوله قتال.

ذكّرني هذا المساء بمساء آخر في سنة ١٩٤٨. أيقظتني أمي من نومي، وكنت آنذاك في السابعة من العمر. وما إن استيقظت حتى سمعت انفجارات القذائف وصوت إطلاق الرصاص. قالت: اليهود هجموا على الجبل. شاهدت أبي وهو يحمل بندقيته الإنجليزية، وجدي وهو يتمنطق بحزام من الفشك، ويحمل بندقيته الصواري الألماني. صدرت الأوامر لأمي ولنا نحن الأطفال بالتوجه شرقاً للنجاة بأنفسنا في حال تقدمت القوات المهاجمة نحو بيتنا. كان بيتنا على مبعدة ألف متر من جبل المكبر حيث تدور المعركة.

حملت أمي بعض المتاع الذي قد يلزمنا في ليلة الصيف تلك. كنا في تموز/يوليو أو آب/أغسطس ١٩٤٨. مضينا أنا وشقيقاتي مع أمي، وكان حولنا نساء وأطفال يدرجون في العتمة نحو الوادي في اتجاه حي "الجديرة"، حيث تعيش عائلات تنتمي إلى عشيرة الشقيرات. بقينا هناك أمام أحد البيوت، تحت السماء المرشومة بنجوم لا تحصى. لا أدري إن كنت نمت أم بقيت مستيقظاً على أصوات الانفجارات، لكنني بالتأكيد كنت أفتقد البيت وحالة الطمأنينة التي كانت تعمّني وأنا في فراشي بين جدرانه المتينة. الآن، وأنا بعيد عن البيت، أفتقد الأمن والأمان.

قُرب الفجر، جاءنا صائح يصيح: اليهود يقتربون.

حملنا متاعنا الخفيف، ومضينا مبتعدين عن حي "الجديرة". قطعنا طريقاً طويلة نحو قرية "السواحرة الشرقية"، حيث لنا أقارب أيضاً. أقمنا في بيت أحد الأقارب، لكن الطمأنينة كانت غائبة حتى ونحن في بيت الأقارب. كان بيتنا بعيداً ونحن هنا بعيدون. عند الضحى جاءنا الخبر المؤلم: اليهود قتلوا صاحب البيت الذي نقيم فيه. عمّ الحزن واللطم والبكاء وتمزيق ثياب النساء عن صدورهن.

خرجت بنا أمي إلى صخرة في الجوار، وكان حولنا نساء وأطفال ممّن نزحوا من الجبل. ثبّتت أمي بساطاً منسوجاً من صوف الأغنام فوق صخرتين متقابلتين كي يقينا حرّ الشمس، وأقمنا تحته يومين أو ثلاثة أيام إلى أن جاء أبي من الجبل.

استأجرنا بيتاً في "السواحرة الشرقية" أقمنا فيه أربعة أشهر، ثم عدنا إلى بيتنا في الجبل. كانت المأساة قد اكتملت، وكانت "السواحرة الغربية"، وضمنها "جبل المكبر" قد أصبحت قرية حدودية سيجري احتلالها بعد ذلك التاريخ بتسعة عشر عاماً.

IV

مساء اليوم الأول لحرب حزيران/يونيو، مشينا في الطريق نفسها إلى أقارب لنا في منطقة "أُمّ عراق" التي تبعد عن بيتنا ثلاثة كيلومترات تقريباً، ولا يمكن للسيارات العسكرية أن تصل إليها. فالمنطقة معزولة وغائرة في سفح "جبل الحرذان".

كنا منذ الساعات الأولى للحرب قد أدركنا أنها لا تسير على نحو مطمْئن، لكن كان ثمة أمل بما تبثّه الإذاعات عن الانتصارات، غير أن الوضع على الأرض لم يكن متطابقاً مع كلام الإذاعات. جاء أحد الشباب ممّن هرعوا منذ الطلقة الأولى إلى جبهة القتال، والذين شاهدوا أعداداً من جنود الجيش الأردني يتقدمون نحو أقاصي الجبل، فتحمّسوا وتبعوهم مع أنهم لم يكونوا مزودين بأي أسلحة. كان منطق الفزعة هو الذي يحركهم. جاء الشاب وهو ينزف دماً من بطنه بعد أن أصابته رصاصة. لم يكن

هناك مستشفى قريب، ولا إسعاف ولا مواصلات ولا وسائل اتصالات. كنا نقيم في بيت أحد أعمامي حتى تلك اللحظة. بيت بعيد قليلاً عن مديات إطلاق النار. جاء الشاب واستغاث بي كي أسعفه، فحاولت إسعافه بوسائل بدائية، لكن نزف دمه لم ينقطع إلى أن فارق الحياة.

في المساء، اتجهنا نحو بيوت أقاربنا في "أمّ عراق". كان هناك نازحون آخرون. جاء جندي أردني منسحب من المعركة إلى بيوت الأقارب. بندقيته في يمينه، والحزن بادٍ على ملامحه. فهمنا أن المعركة على الجبل لم تكن في مصلحتنا. قال الجندي: إنها الهزيمة.

في اليوم التالي، كانت الهزيمة تتضح على نحو أكثر سطوعاً. أعداد من أهالي القدس يمرون في سيل من البشر لا ينقطع، يمشون على غير هدى نحو الشرق، بعد أن اجتاح جيش الغزاة المدينة. وقعت بلبلة في صفوفنا نحن المقيمين عند الأقارب. كانت طائرات العدو تحلق في السماء القريبة فوق رؤوسنا. مَن يضمن لنا ألاّ تقصفنا الطائرات؟! مَن يضمن لنا ألاّ يتقدم نحونا الجنود الغزاة؟! كان هناك مَن يفكر في النزوح نحو الشرق، نحو الأردن، كما حدث لأناس آخرين من أبناء فلسطين في سنة ١٩٤٨.

بعضنا نزح نحو الشرق، على الرغم من التحذيرات والنصائح. كثيرون منا قالوا: نموت في أرضنا ولا نرحل. هكذا بقينا في البلد. عدنا إلى بيتنا في الجبل بعد أسبوعين من انتهاء الحرب بهزيمة نكراء. عدنا ونحن متخوفون من مداهمة مفاجئة. كان بيتنا مثل بيوت أُخرى في الحي، قد تعرض لعملية تطهير قام بها الجيش المحتل. وجدنا طلقات رصاص وقد اخترقت أبواب الحديد. وجدنا أبواباً مخلعة. وجدنا غبرة الحرب على جلد البلد. كان ثمة قتلى من رجال ونساء بقوا في البيوت، وكان هناك شهداء من الجنود. كانت أياماً من حزن وإحباط وذهول.

وكانت الإذاعة الإسرائيلية الناطقة باللغة العربية تبث برامج وأغاني تشتمّ منها رائحة الشماتة والتشفي والتباهي بالنصر السريع الذي أحرزه جيش لم يحارب إلاّ قليلاً على مختلف الجبهات.

وقعت الضفة الغربية وشبه جزيرة سيناء وهضبة الجولان في يد الأعداء.

وأصبحت فلسطين كلها في قبضة الإسرائيليين.

أصبحت القدس الشرقية تحت الاحتلال.

V

دخلتُها بعد انتهاء الحرب.

السيارات العسكرية تجتاز شوارع المدينة وفيها جنود صاخبون. كانت القدس منكسرة إلى أبعد الحدود، وثمة متاجر مخلوعة الأبواب، وبيوت أصابتها القذائف وتركت عليها آثار دمار.

كانت وجوه الناس حزينة معتكرة، والإحباط يتبدى في العيون، بينما جموع من الإسرائيليين والإسرائيليات يجوبون أسواق المدينة وعلى وجوههم نشوة الانتصار. دوريات الجنود الراجلة تتمركز هنا وهناك.

وكنا في أثناء تجمّعنا حول مجلة "الأفق الجديد" قد جعلنا من بعض مقاهيها ومحالّ الكافتيريا فيها، ملتقى ثابتاً لنا. كانت كافتيريا "ساندريلا" الواقعة في شارع صلاح الدين تشكل علامة فارقة في المدينة، إذ كانت تعمل فيها فتاة جميلة تقدّم الطلبات للزبائن. كان هذا الأمر يجذب انتباهنا لانسجامه مع نزعة الحداثة التي تشق طريقها بحذر، وكان زبائن الكافتيريا في العادة من الرجال والنساء، على العكس من المقاهي الأُخرى التي لا تستقبل إلاّ الرجال. كنا نلتقي في هذه الكافتيريا ونحن نتأبط كتباً اشتريناها من المكتبات المنتشرة في شارع صلاح الدين، نتأبطها كي نلفت انتباه فتاة الكافتيريا وغيرها إلى أننا مثقفون لا يُشقّ لنا غبار.

وكانت كافتيريا "جروبي" في شارع السلطان سليمان في عداد الأماكن التي نتردد عليها، وفي أثناء ذلك يقدّم لنا صاحب الكافتيريا، الكهل المهذب المتأمل والصموت أبو عطا، زجاجات البيرة أو كؤوس النبيذ أو الكونياك، الأمر الذي يساعدنا على مزيد من الحوارات السياسية والثقافية التي تذهب بنا مذاهب شتى.

بعد الهزيمة، زرت كافتيريا "جروبي". كان أبو عطا واقفاً كعادته خلف الكاونتر، عيناه على رصيف الشارع حيث تنداح أعداد من البشر مثل سيل لا ينقطع. سيجارته بين شفتيه لا يقبض عليها بين أصبعيه إلاّ على فترات متباعدة. شاهدته وهو مكتئب حزين. قال إن ابنه ذهب متطوعاً للقتال منذ اليوم الأول للحرب، ولم يكن متدرباً على استخدام السلاح. ذهب ولم يعد حتى الآن، شأنه في ذلك شأن شبان كثيرين.

كان أبو عطا يرنو بعينيه الحزينتين نحو الرصيف، كما لو أنه ينتظر أن يرى ابنه الغائب وهو يعود فجأة. وها قد مرت خمسون عاماً على الهزيمة، والابن الغائب لم يعد بعد. مات أبو عطا وفي نفسه لوعة على فقدان ابنه العزيز. بعد أعوام من الهزيمة لم تعد كافتيريا "جروبي" موجودة، فقد جرى تحويلها إلى مطعم ملحق بمطعم مجاور، كما أن كافتيريا "ساندريلا" لم تعد موجودة، ولا الملاهي التي كان لها حضور في القدس. ومع تفشّي نزعة المحافظة وانتعاش الأصولية الدينية في المدينة، أُغلقت مقاهٍ عديدة، وتحولت إلى محال لبيع الأحذية أو لبيع الجلابيب للنساء. أُغلقت دور السينما الثلاث أيضاً، وتمّ إحياء الدواوين العائلية، وتعزّز نفوذ العائلة الممتدة على الأفراد، وازداد العنف الداخلي بين أبناء المجتمع، وتحول الجزء الشرقي من القدس إلى قرية كبيرة.

في الوقت نفسه، أمعنت سلطات الاحتلال في تهويد المدينة: زرعت بؤراً استيطانية كثيرة داخل البلدة القديمة؛ استولت على عدة بيوت فيها وحولتها إلى كنس ومدارس دينية توراتية؛ حولت حارة المغاربة وحي الشرف إلى حي استيطاني يهودي؛ أحاطت المدينة بسلسلة من المستعمرات، وحاصرتها بجدار الفصل العنصري؛ غيرت المشهد العمراني فيها، وأحاطتها ببنايات ضخمة تحجب المشهد الأصيل داخل سورها.

VI

كانت هزيمة فادحة ما زلنا نعاني آثارها حتى الآن.

استفاق الشعب الفلسطيني من صدمة الذهول، وقدّم تضحيات جمّة على امتداد الأعوام الخمسين الماضية، ولا يزال حتى اليوم يقدّم التضحيات. لم ييأس ولم يهن، وما زال الإصرار على الصمود وتحقيق الأهداف المشروعة في رأس قائمة الاهتمامات، على الرغم ممّا يحيط بالقضية الفلسطينية من تعقيدات، ومن محاولات دؤوبة لتصفيتها وتبديدها، وعلى الرغم ممّا تعانيه الحركة الوطنية الفلسطينية من تشرذم وانقسام وضعف وخلافات.

أمّا القدس فإن نزعة المحافظة التي تتبدى عبر مظاهر عديدة، تساهم في إضعاف النزعة المدنية في المدينة، وما كان سائداً فيها من تعددية وانفتاح.

ومع ذلك، فإنها لا تزال تتعرض للتهويد، ولعل الهجمة الأخيرة على المسجد الأقصى وتكبيله بالبوابات الإلكترونية أوضح دليل على ذلك.

غيرَ أن مواطني القدس، مسلمين ومسيحيين، مثلهم مثل باقي الفلسطينيين في الوطن وفي الشتات، ما زالوا يحيون على الأمل، والإصرار على الولاء للوطن، على الرغم من التباسات المرحلة وما فيها من مخاطر وصعوبات. ■

حزيران بلا قتال

نظمي الجعبة*

مقتطفات من يوميات فتى مقدسي**

لم تنتهِ سنة ١٩٦٦ إلاّ وكان بيتنا الجديد قد تحضّر لاستقبالنا بعد مغادرتنا البلدة القديمة في القدس حيث ولدت وترعرعت وعرفت تفصيلاتها وأزقتها وناسها. البيت الجديد يبعد أقل من مئة متر إلى الجنوب من أسوار القدس الجنوبية، في حي وادي حلوة الأخضر الذي تمتد فيه البساتين ويتصل بالنبع الوحيد في المدينة، والحي جزء من قرية سلوان الوديعة التي ترقد في ظل أسوار القدس، ملتصقة بها. وكان البيت الجديد بمثابة صعود طبقي لعائلتي، إذ توفرت فيه كل ما كنا نفتقده في البيت القديم: كهرباء، ومياه جارية، ومرحاض خاص بنا، وحديقة صغيرة، والخصوصية التي يفتقدها الحوش الكبير الذي كنا نسكنه، وحتى "دوش"، فأنا لم أتخيل في حياتي أنه يمكن الاستحمام خارج "الطشت" إلى أن انتقلنا إلى البيت الجديد.

في حي المغاربة

بعد انتقالنا، انضمت مناطق جديدة إلى مساري اليومي، مع محافظة الحرم الشريف على مكانته المرموقة والرفيعة في نفسي وفي جدولي اليومي، لأن الوصول إلى مدرستي العمرية، الواقعة فوق الجدار الشمالي للحرم الشريف، عبر باب المغاربة (باب المدينة)، يتطلب اجتياز جزء من حارة المغاربة، وخصوصاً أمام بيوت آل أبو السعود، ودخول الحرم الشريف من باب المغاربة (باب الحرم)، كما أن العودة من المدرسة إلى البيت كانت تتطلب الذهاب إلى دكان والدي في طريق باب السلسلة لإثبات الوجود قبل أي شيء، وهو شرط تشدد الوالد في تطبيقه، ولمعرفة ما إذا كان هناك سلة من المواد الغذائية في انتظاري، ثم العودة عن طريق باب السلسلة إلى عقبة أبو مدين الغوث، واختراق حارة المغاربة من الشمال إلى الجنوب، ثم الهبوط عبر وادي حلوة إلى البيت الجديد.

وبهذا دخلت حارة المغاربة في تجاربي اليومية واكتشافاتي الصغيرة. ولفت نظري بشدة

* أستاذ التاريخ في جامعة بير زيت.

** هذه مقتطفات من يوميات للكاتب غير منشورة، ولا ندري إن كان سينشرها أم لا، لكنه بسبب مرور خمسة عقود على احتلال مدينته، قرر نشر هذا الجزء الذي ربما يفيد في إنعاش ذاكرة آخرين، فيدوّنون مذكراتهم قبل أن تتلاشى الذاكرة.

اللباس المغربي بألوانه المتنوعة بشكلَيه الصيفي والشتوي، وأجمل ما فيه تلك الطاقية المتدلية على الكتف، أو على الظهر. كما شدّني الطربوش المغربي الذي يختلف عن طرابيش الأفندية على الطريقة العثمانية، والذي كان منتشراً في قدس ستينيات القرن العشرين، فهو لين ولا يرتفع كثيراً، ولا يساهم في تضخيم لابسه. كما أن ملابس المرأة المغربية كانت غريبة بعض الشيء بالنسبة إليّ، إذ تشكل اللباس أساساً من جلابية، وهو أمر غير مألوف بالنسبة إلى النساء المقدسيات اللواتي كنّ يلبسن إمّا اللباس الإفرنجي الجديد، وإمّا اللباس المحلي الأسود لنساء بلاد الشام.

ودخلت إلى قاموسي أيضاً، عبارات ومصطلحات مغربية، وأصبحت أذني معتادة على اللهجة المغربية التي لم أفهم بعض تعابيرها، ولا سيما لهجة الزوار والمجاورين المغاربة، مع أنني شعرت بأن بعض تلك اللهجات أقرب إلى لهجتنا، غير أنني لاحظت أن لكنتهم مختلفة بعض الشيء، وأن سرعة نطقهم لا تتماشى والأذن المقدسية البطيئة المعتادة على مد الكلمة، وأنهم يقرضون بعض أحرف الكلمات، الأمر الذي يتطلب تركيزاً إضافياً لفهم الجمل والمقصود بها، ولهذا لم أستطع فهم كل شيء، فاقتصرت على المغزى. لكنني تعلمت التعرف إلى المغاربة من خلال ملامحهم أيضاً.

ولا أستطيع نسيان شجرة التين الضخمة التي كانت ترتفع من خلف الجدران العالية لحديقة دار المصلوحي الكائنة على درج عقبة أبو مدين الغوث، وكنت أنتظر ثمارها في مطلع أيلول/سبتمبر من كل عام، فأراقب الثمار وهي تنمو، وأُعلّم بعضها كي أقتنصها حين تنضج وتحين الفرصة لذلك. وتعرفت أيضاً إلى كثير من الأولاد في الحارة، ولم يكن مشهداً غير مألوف أن أضع حقيبتي المدرسية أو سلة الخضار على قارعة الطريق لأنهمك في لعبة كرة قدم في أزقة الحارة. وكنا نتابع الكرة أحياناً إلى داخل ساحات البيوت الداخلية، غير مكتفين بالطرقات والساحات العامة، فتنهال علينا الشتائم واللعنات، باللهجة المغربية.

وكان سكان زاوية أبو مدين الغوث (زاوية المغاربة) وباقي الحارة التي لم تقتصر على المغاربة فقط، يتشكلون من صنفين: المغاربة الدائمين، أي ممّن أصبحوا بفعل تقادمهم سكاناً دائمين في القدس "تمقدسوا"، أو المغاربة المجاورين لفترات محدودة قد تطول، والذين يزداد عددهم في شهر رمضان، وكذلك بعد موسم الحج. وأصبحت أميّز بين الصنفين بالملبس وطريقة السير، وطبعاً باللهجة. أمّا باقي سكان الحارة فكانوا على الأغلب من المغاربة الذين حضروا إلى القدس قبل أجيال كثيرة وتبلّدوا (أصبحوا من أبناء البلد)، لكن كان يضاف إليهم كل عام أعداد قليلة من المجاورين الذين قرروا عدم العودة إلى موطنهم الأصلي والبقاء في جوار المسجد الأقصى. كما ازدادت معرفتي بالمطبخ المغربي، فلم تعد كلمة "كسكس" غريبة بعد أن فُسرت لي بأنها "الكسكسون" أو "المفتول" تقريباً، مع حفظ الفوارق، لأن المغاربة كانوا يصرون على تمييز كسكسهم من سواه، وأصبح أنفي يميز رائحة البهارات الشديدة التي تنبعث من مطابخ الحارة.

وهكذا صارت تفصيلات حارة المغاربة جزءاً من عالمي الصغير، فقد شدني جداً الآخر (المغربي) الذي يسكن هناك، وكنت تواقاً إلى معرفة مزيد عنه. وفي الحقيقة فإنني لا أستطيع الآن تفسير صداقاتي التي تشكلت بسرعة البرق في حارة المغاربة، إلاّ من باب تلك المحاولات الاستكشافية التي كانت تلاحقني في أزقة القدس العتيقة كافة.

تعدّت معرفتي بالحارة عبر الطريق العام المتفرع من طريق باب السلسلة نزولاً عبر عقبة أبو مدين الغوث، والمتجه جنوباً بشكل ملتف بين البيوت، والذي ينخفض بالتدريج عبر كثير من الأدراج، إذ إن حارة المغاربة هي أكثر حارات المدينة القديمة انخفاضاً، ثم يلتقي هذا الطريق بطريق فرعي آخر يصعد في اتجاه الشرق، ويقود بين بيوت آل أبو سعود (زاوية أبو السعود وملحقاتها) إلى الحرم

الشريف، كما يتفرع عن هذا الطريق زقاق يقود إلى حائط البراق. لقد اكتشفت أزقة الحارة، وأتخيلها الآن أصغر وأضيق أزقة البلدة القديمة على الإطلاق، فقد انعدمت فيها تقريباً الطرق المستقيمة، وسيطرت الطرق الملتوية والشديدة الالتفاف على شبكة الطرق في الحارة. ولم تكن بيوت حارة المغاربة أجمل مباني البلدة القديمة، كما أن ارتفاعاتها كانت أقل نسبياً من ارتفاعات مثيلاتها في الحارات الأُخرى. وأذكر الآن تعدد الحدائق الصغيرة في أحواشها وكثرة أشجار التين والرمّان مقارنة بباقي أجزاء البلدة القديمة، وهكذا خلال أقل من عام أصبحت حارة المغاربة مرتعاً من مراتع الطفولة.

"الجيش العراقي" يهدم حارة المغاربة ويرقص على أطلالها!!

لم تطل استكشافاتي في حارة المغاربة كثيراً، فهي لم تتعدّ العام أو أقل قليلاً، وكان بودي لو تعرفت إلى مزيد منها، وخصوصاً الفتحات الكثيرة في الجدران الشمالية للحارة، والتي تقود إلى المجهول الذي يستفزني، كما أن علاقاتي مع صبية الحارة كانت في بواكيرها، وإن كنت لا أزال أذكر ملامح بعض الوجوه التي لم أعد أراها.

بعد يومين من اندلاع حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، وبسبب وجود معسكر للجيش الأردني على السفح الشرقي لجبل النبي داود، والذي لا يبعد أكثر من ١٠٠ متر هوائي عن بيتنا الجديد، ولأن المعسكر كان يتبادل القذائف المدفعية مع الجيش الإسرائيلي، وشهد بعض الغارات الجوية، قرر والدي الاحتماء في البلدة القديمة في بيت جدي الذي كان يقع في حارة الشرف. لم نحمل معنا كثيراً من متاع الدنيا، فقد تم الأمر على عجل، وكان والدي على يقين بأن غيابه عن إنجاز عمره لن يطول، لكنه اعتقد بأن البلدة القديمة بأسوارها وحرمتها قد تقينا الأسوأ، وأن الابتعاد عن المعسكر سيجنّبنا المخاطر المحتملة.

الغرفة اليتيمة التي كان يقطنها جدي، والواقعة في حارة الشرف الملاصقة لحارة المغاربة من الجهة الغربية، اكتظت بنا بمصطبتها الداخلية التي تعلو ثلاث درجات عن المستوى الأدنى للغرفة، مثل بيوت الفلاحين، وترتفع عنها بعلو عدة طبقات، لكن ساحة الدار الضخمة ومستوياتها المتعددة، استوعبتنا جميعاً في أثناء النهار، لننحشر كلنا في الغرفة في أثناء الليل.

تشكلت تلقائياً ثلاث حلقات من سكان الدار الكبيرة وضيوفها الكثر: الأولى من الرجال والأطفال اليافعين الذين تحلقوا حول المذياع لمعرفة آخر "انتصارات" الجيوش العربية وأين وصلت في عملية "تحرير فلسطين"، كما أنهم كانوا يتابعون الوضع العسكري الميداني عن كثب من فوق سطح الدار المطلة على الشرق، حيث يظهر جبل الزيتون ومجمع الجامعة العبرية، وكان يمكنهم مراقبة الاشتباكات التي كانت تتم بين الجيشين الأردني والإسرائيلي على جبل المكبّر الواقع على بعد أكثر من ستة كيلومترات جنوبي البلدة القديمة. الحلقة الثانية تشكلت من النساء والبنات، وقد اتصفت هذه الحلقة بكثرة الصلوات والأدعية وقراءة القرآن الكريم والتسبيح، وتخللها، طبعاً، تحضير كثير من الشاي والقهوة لمرات لا تُحصى خلال اليوم، والقيام بإعداد الطعام لهذا الكم الكبير من الأفواه التي لا شغل لها سوى الأكل والشرب. أمّا الحلقة الثالثة، فتشكلت من الأطفال الكثر الذين لم ينضموا إلى أي من الحلقتين السابقتين، واعتبروا ما يدور احتفالاً كرنفالياً يطيب خلاله اللعب والقفز والصراخ ومتابعة الكبار بحركاتهم البهلوانية عندما كانوا يهرعون إلى سطح الدار الكبيرة لمراقبة حدث ما كلما تبادر إلى السمع صوت انفجار أو هدير طائرة حربية، أو ترامى إلى مسامعهم من البنايات

المجاورة خبر عاجل، أو تقرير مفصل ومؤكد وموثوق به بشأن ما يدور، وبشأن تطورات المعارك على مختلف الجبهات.

بيت جدي، الذي لا يبعد كثيراً عن بيتنا السابق في البلدة القديمة، والذي يقع في مبنى ضخم كان أساساً نزلاً كبيراً يعود إلى فترة الفرنجة (القرن الثاني عشر للميلاد)، طبعاً هذا ما علِمْته بعد أربعين عاماً من هذه الأحداث، وبسبب كبره، وبما أضيف إليه في القرون اللاحقة من غرف، كانت تقطنه مجموعة كبيرة من العائلات إحداها عائلة جدي الذي احتل وجدتي غرفة في الطبقة الأرضية من المبنى. ولم يكن للغرفة مطبخ، وإنما جرى اقتطاع زاوية منها وتحويلها إلى مطبخ، في حين تشارك جدي وعائلات أُخرى المرحاض. والبيت من طبقتين، وفوق جزء من المبنى هناك طبقة ثالثة يسكنها أقرباء لنا، ويبدو أن بعض العائلات لسبب أو لآخر التجأ إلى هذه الدار مثلنا، فتحولت الدار إلى شكل من أشكال مخيمات اللاجئين.

وكانت عائلتي المشكلة من ١٣ فرداً قد زادت بسبب زواج أخي الأكبر وانضمام زوجته إلى العائلة، لكن شقيقي الأصغر منه سناً كان قد غادرنا للدراسة في دمشق، لكننا لم نستطع المحافظة على رقم ١٣ السحري، بسبب زواج شقيقتي الكبرى وانتقالها إلى السكن في شرق الأردن. وقد جرت الحرب وشقيقي الثاني ما زال في دمشق، الأمر الذي سبّب قلقاً غير عادي لدى كل أفراد العائلة بشأن مصيره، ولم يتبدد إلاّ بعدما وصل إلى القدس بعد أسبوعين من انتهاء الحرب، عبر عمّان ثم سيراً على الأقدام.

كثيرة هي القصص التي يمكن أن تروى عمّا دار في تلك الدار خلال الأيام القليلة التي قضيناها فيها، لكن المجال هنا لا يتسع لروايتها. وفي خضم النقاش الصاخب الذي كان يدور في حلقة الرجال المحللين للأوضاع والخبراء في الشؤون العسكرية والاستراتيجية، أعلن "برج المراقبة" من فوق أعلى نقطة على سطح الدار وصول "الدبابات العراقية" إلى جبل الزيتون، وبدء سيرها في اتجاه البلدة القديمة، فأطلقت حلقة النساء زخات من وابل الزغاريد، تلاها التصفيق الذي استمر دقائق بسبب عدم انصياع الأطفال لأوامر الكبار بالكفّ عن ذلك، وهمّ الرجال باستلال أسلحتهم القليلة والبدائية المتحفزة للمشاركة في هذا العرس الوطني الذي كثيراً ما انتظروه، أو تحضروا للانقضاض على الشطر الغربي من المدينة، وبدأت الخطط والأولويات تُرسم، علماً بأن أياً منهم لم يكن قد تدرب على استعمال السلاح، إلاّ إن النخوة والحماسة كانتا سيدتَي الموقف. وتحضّر بعض سكان الدار أو زوارها، لم أعد أذكر، للعودة إلى بيوتهم في القدس الغربية، والتي شُردوا منها في سنة ١٩٤٨، لكن حكمة جدي الأكبر عمراً بين الحضور وتجربته الحياتية انتصرتا، فقد أمر الجميع بالتروي، ريثما ينقشع غبار المعركة، وبعدها لكل مقام مقال، ولن يضيع حق وراءه مطالب. ولم تمض سويعات قليلة على مشاهدة "الدبابات العراقية" على جبل الزيتون، حتى سمعنا جلبة كبيرة في الطريق العام أمام الدار، فانشرح صدر جدي وابتهج وعلت على وجهه ملامح الانتصار الذي لا ريب فيه، وقرر مصادرة إبريق الشاي الضخم الذي كان قد حُضّر لنزلاء الدار، وخرج به إلى الطريق لتقديمه إلى "الجيش العراقي" المنهك بسبب طول الطريق من بغداد إلى القدس، وهو بالتأكيد بحاجة إلى كأس من الشاي الذي هو مشروب العراق المفضل، وإن كان الشاي معتقاً فسيرحب به العراقيون أكثر، لأن "شايهم أثقل من شاينا."

لم يغب جدي سوى ثوان معدودات، حتى ارتد إلى داخل الدار، وسمعنا باب الدار الحديدي الضخم يرتد وراءه بعنف وصخب مطلقاً صدى هائلاً بين أروقة الدار، وسقط الإبريق وفناجين الشاي من بين يدَي جدي مطلقاً كلمة واحدة فقط هي "هود"، وهي في لهجة جدي تعني "يهود"، وسقط مغشياً عليه. وهنا فهمنا أن البلدة القديمة سقطت بيد الاحتلال الإسرائيلي، وأن "العراقيين" ودباباتهم هم "يهود". ودبّ في الدار الكبيرة هرج وبكاء وعويل لا تزال تطنّ في أذني حتى اليوم، وذلك بعد مرور خمسة

عقود على سقوط إبريق الشاي الضخم من يدي جدي، لكني سأعفيكم وأعفي نفسي من بقية ذكريات الهزيمة ووقعها في النفوس التي كانت متأكدة من النصر المبين.

سيطر القلق الشديد على والدي. كيف سيتحمل مسؤولية هذا العدد الكبير من العائلة، وكيف سيتصرف في ظل الأوضاع الجديدة، وخصوصاً بعد سماع مكبرات الصوت باللكنة العبرية معلنة منع التجوال وتسليم الأسلحة أو إلقاءها في الشوارع؟ وازداد قلقاً على بيته الجديد في وادي حلوة، وهل من الممكن العودة إلى البيت؟ فضاقت به الدنيا، وتحوّل لون وجهه الوردي إلى لون أقرب إلى الزرقة، واختفت بسمته الدائمة.

ولحظة إعلان رفع منع التجوال الأول، ولمدة ساعة فقط للتزود بالمواد الغذائية، اندفع والدي يجمعنا من أرجاء الدار، كراعٍ يجمع قطيعه المنتشر، معلناً الرحيل إلى بيتنا في وادي حلوة (سلوان) خارج الأسوار، وسط احتجاجِ الجميع وعدم تصديقهم للقرار الطائش وغير المسؤول الذي اتخذه والدي. لقد انتاب والدي الخوف الشديد على بيته الجديد الذي لم يهنأ به بعد، كما أنه صمم معلناً أنه لن يموت إلاّ في بيته، وأنه لن يرحل ولن يصبح لا هو ولا أي من أبنائه لاجئاً في أي مكان.

خرجنا من الدار بسرعة وخوف شديدين إلى المجهول، واتجهنا بخطى بطيئة ثقيلة وغير واثقة شمالاً إلى طريق باب السلسلة، ونزلنا الدرجات التي عبرناها آلاف المرات في الماضي، والتي يعرفها جميع أفراد عائلتي بالتفصيل، حتى إننا نستطيع السير عليها ونحن مغمضو العيون. ولم نشاهد أي شيء يدعو إلى الاستغراب أو الريبة، ولم نشاهد أي جندي ولا دمار على الرغم من سماعنا انفجارات وأصوات جرافات في أثناء وجودنا في بيت جدي. وكان على الطريق بعض من الناس، يهرولون بهدوء ومن دون أي كلام، لكن الغضب والقلق بادياً على محياهم. كان بعضهم يحمل حقائب ثقيلة، وبعضهم الآخر يجر صبية، أو حتى يحمل عجوزاً طاعنة بالسن ولا تقوى على السير، لكن كل شيء يمكن اعتباره في مثل تلك الظروف عادياً.

لدى وصولنا إلى طريق باب السلسلة انعطفنا يميناً (إلى الشرق) وسرنا ٥٠ متراً تقريباً، ثم انعطفنا يميناً مرة أُخرى (إلى الجنوب) لندخل عقبة أبو مدين حيث سرنا في الزقاق بضعة أمتار قبل نزول الدرجات الأولى، وما إن وصلنا إلى زاوية أبو مدين الغوث، وأصبح وجهنا في اتجاه الشرق، حتى انفتح أمام أنظارنا مشهد مرعب يفوق كل تصور. مباشرة تحت الدرجات تراكمت أعداد هائلة من الجنود المدججين بالسلاح حتى أخمص أقدامهم، يرقصون ويغنون على أنغام الموسيقى بلغة غير مفهومة، وخلفهم لم يعد لحارة المغاربة وجود، فقد اختفت التينة والرمانة، واختفت الأزقة التي كنت ألعب بينها، واختفت الممرات التي اعتدت استعمالها؛ اختفى محمد، وسعيد، وسي يوسف، واختفى المصلوحي وتينته... كل شيء بات ركاماً يتصاعد منه غبار الدمار تحت أشعة شمس حزيران/يونيو الحارقة، والجرافات التي لم أشاهدها في حياتي من قبل، ما زالت تهدر بجنازيرها الحديدية على أنغام موسيقى الانتصار، وتكمل مهمة لم تنتهِ بعد. وكان هناك كذلك مجموعة من الحاخامات الأشكيناز الذين كنت أشاهدهم لأول مرة في حياتي أيضاً، بردائهم الأسود وقبعاتهم الغريبة، وكانوا يرقصون فوق الدمار، وفوق ذكرياتي، وفوق بيوت أصدقائي، وفوق ممرات كثيراً ما سرت عليها. وبرز حائط البراق لأول مرة ضخماً أمامي، وأنا لم أعتد هذا المنظر من قبل، إذ كان الجدار صغيراً وغير مرتفع ويقع في زقاق ضيق، ولم يكن ممكناً مشاهدته إلاّ بدخول زقاق وباب. فجأة احتل الجدار المشهد كله، وأصبحت قبة الصخرة والمسجد الأقصى مرئيَّين من هذه النقطة، بينما كانا في الماضي محجوبَين عن الأنظار بسبب الأبنية المكتظة في حارة المغاربة.

لا أستطيع القول إن أياً من الاثني عشر السائرين على أنقاض حارة المغاربة قد استوعب أي شيء

من هذا المشهد الجديد، ولا أعرف حتى الآن كيف لم يُغشَ علينا، ويبدو أن الجميع تحضّر للأسوأ. فخلال ثوان، التفّ حولنا عدد من الجنود شاهرين أسلحتهم، ومطلقين زخات من الكلمات غير المفهومة، لكننا فهمنا منها أن علينا التوقف. مرّر أحدهم نظره علينا بشكل مدقق ومتأنّ ومتعال، وكان الغبار قد غطى ملامح وجهه وغيّر لونه، بحيث لا يمكن تبيّن ملامحه الأصلية، ووقع اختياره على شقيقي الأكبر (رقم ١)، الذي كان في منتصف العقد الثالث من عمره، وجرّه من بيننا، وعصب عينيه بعصابة، وأمرنا باستكمال المسير. سرنا جميعاً من دون شقيقي في اتجاه باب المغاربة، تاركين وراءنا حارة محطمة، وجنوداً يرقصون، وجداراً مهيمناً ومتسلطناً، وحاخامات يهزون رؤوسهم في اتجاه الجدار، وجرافات تلتهم ما تبقّى من الحارة، وشقيقاً معتقلاً بيد الجنود لا نعرف ماذا سيكون مصيره. حملنا معنا الذل والمهانة والدموع والهزيمة والتفاتات إلى الوراء، مطأطئين الرؤوس حتى غاب المشهد من خلفنا ونحن ننزل إلى المجهول من خلال الانحدار المؤدي إلى السور الجنوبي للخروج من البلدة القديمة عبر باب المغاربة، ورافقتنا في تلك الأمتار القليلة التي لا تزيد على المئة، عيون الجنود المنتشرين في كل مكان، وآليات عسكرية اصطفت على طرفَي الطريق، وبدا لي أنه ليس لها نهاية.

لم تغب الجرافات عن المشهد بعد ذلك اليوم، فقد راقبتها وهي تزيل الحجارة التي أغلقت ما بين سنة ١٩٤٨ حتى سنة ١٩٦٧ بوابات الخليل والجديد والنبي داود؛ راقبتها بتمعن وهي تزيل الأبنية العربية التي كانت منتشرة خارج باب الخليل حتى مقبرة ماميلا من جهة، وشارع يافا من جهة أُخرى، وكانت أغلبيتها تقع في المنطقة الحرام. راقبتها وهي تزيل عشرات المباني في منطقة المصرارة؛ راقبتها وهي تفرض توحيداً قهرياً لشطرَي المدينة. بقيت الجرافات ولا تزال شاخصة في حياتي، لكنها ارتبطت وما زالت بالمشهد الأول، مشهد تدمير حارة المغاربة، ولم يعد في ذهني استعمال للجرافة إلاّ للدمار.

في أيلول/سبتمبر من العام نفسه، وبعد أن اكتملت العائلة من جديد، التحقت بمدرستي العمرية، وشهدتُ تغييرات كثيرة، إذ وعلى بالرغم من أن طريقي إلى المدرسة وإلى دكان والدي لم يتغير، فإنه أصبح فوق أنقاض حارة المغاربة عبر الساحة الضخمة، أمّا الطريق المؤدي إلى الحرم فلم يعد يلتف بين أزقة الحارة، وإنما أصبح مجرد تلة ترابية مكونة من بقايا أبنية حارة المغاربة، كما أن الدخول إلى الحرم من باب المغاربة أصبح يعني المرور عبر نقطة الشرطة العسكرية الإسرائيلية التي سيطرت على هذا الباب وانتزعت مفتاحه من الأوقاف الإسلامية. ولم تعد ساحات الحرم محافظة على هدوئها الصباحي المعهود، بل باتت مكتظة بالزوار من الإسرائيليين المحدقين بكل شيء، وأصبح "عادياً" مشهد زوار الحرم من حملة الأسلحة الأوتوماتيكية ممّن يلبسون الزي العسكري، أو حتى من "المدنيين" الذين يتمنطقون بأسلحتهم ويتباهون بها أمام أنظارنا.

لم يعد في الحقيقة أي شيء كما كان، ولم تعد المدينة مدينة، ولا القدس قدساً، ولم يعد هدوئي وتأملاتي كما هي، وإنما أصبحت دائماً على عجلة من أمري، أركض في كل اتجاه من دون سبب ولا حاجة؛ أهرب من نفسي، وأهرب من أن تلتقي عيناي بعينَي إسرائيلي، وأهرب من استذكار حارة المغاربة، حتى إن سكان القبور المملوكية في طريق باب السلسلة لم يعودوا يستحوذون على فاتحتي، بل أصبحت أرمقهم بنظرة سريعة لا تحتوي حتى على اعتذار.

وكانت التغيرات في المدرسة كبيرة أيضاً، إذ لم يعد إلى المدرسة معظم المدرسين القدامى الذي امتنعوا من التدريس في ظل الاحتلال، في مدارس تسيطر عليها سلطة الاحتلال الإسرائيلية، وحل محلهم كثير من المدرسين الشباب، إذ جرى توظيف كل مَن يحمل شهادة الثانوية العامة، حتى إن

التشدد في هذا الشرط لم يتكلل بالنجاح دائماً. ولم يعد إلى صفي نصف الطلاب تقريباً، فمنهم مَن ترك المدينة إلى الأردن، ومنهم مَن ترك المدرسة كي يلتحق بسوق العمل، ومنهم مَن لم أعرف مصيره قط.

لقد قرر الاحتلال التظاهر كأن الحياة عادية، وبأن الأمور في القدس تسير على خير وجه، وأن سكان القدس من العرب تقبّلوا الوضع الجديد، وأن لا تغير دراميا على الحياة، ولذلك لا بد من فتح المدارس في موعدها في أيلول/سبتمبر، معلناً أن الإجازة الصيفية العادية التي تمتد من حزيران/يونيو حتى أيلول/سبتمبر انتهت، وأن في إمكان الجميع مزاولة حياتهم كالمعتاد.

أمّا التغير الثاني في المدرسة فكان في المنهاج، إذ فرض الاحتلال منهاجه المدرسي، وهو المنهاج نفسه الذي كان مفروضاً على فلسطينيي الأرض المحتلة منذ سنة ١٩٤٨. ومن الأمور المثيرة في ذلك المنهاج هو اختفاء صورة الملك حسين بن طلال التي كانت تستهل جميع الكتب المدرسية قبل ذلك، كما اختفى اسم المملكة والتاج الملكي من غلاف الكتب. ومن أكثر الأمور إثارة كان ظهور مدرّسة يهودية تلبس تنورة قصيرة كي تعلّمنا اللغة العبرية، وما زلت أذكر اسمها "مريم". أمّا الأمر الآخر فكان كتاباً يحمل اسم "مدنيات إسرائيل"، وأذكر أن مربي الصف قال لنا: "اعتبروا أنكم لم تستلموه، ولا داعي لإحضاره إلى المدرسة." لم تعد العمرية عمرية، تماماً، مثلها مثل القدس.

لم يطل هذا الأمر كثيراً، فالأساتذة، ومن خلفهم أولياء الأمور، رفضوا الاستمرار في تدريس منهاج الاحتلال، وأصروا على أننا جزء من المنهاج الأردني، وأن الطلاب بعد إنهائهم الثانوية العامة سيتوجهون إلى الجامعات العربية، وهذه الجامعات لا تعترف إلاّ بامتحانات الثانوية العامة الأردنية. لم أنتظر تلك التغيرات، وإنما قررت أخذ زمام المبادرة، فاستعدت المنهاج الأردني بالتدريج، لكن ذلك جرى على مراحل استمرت أعواماً طويلة. لقد بقيت طالباً في المدارس التابعة للاحتلال حتى أنهيت الثاني الإعدادي (الصف الثامن)، وأمضيت عامَين في مدرسة عبد الله بن الحسين الكائنة في حي الشيخ جراح على بعد أربعة كيلومترات شمالي البلدة القديمة، لأن المدرسة العمرية تنتهي عند الصف السادس، وبالتالي أصبحت أسير على قدمَيّ من سلوان عبر البلدة القديمة كلها حتى الخروج من باب العمود، ثم أستكمل المسير عبر شارع نابلس مروراً بالقنصلية الأميركية وجمعية الشبان المسيحية، فمدرسة المطران، مروراً بـ "الأميركان كولوني" وزاوية الشيخ جراح، وبعد الوصول إلى أخفض نقطة في تلك المنطقة، كنت أصعد بشكل حاد من أمام بيوت آل غوشة وجار الله وصولاً إلى مدرسة عبد الله بن الحسين، وبعد الظهر كنت آخذ الطريق نفسه، لكن مروراً بدكان والدي في طريق باب السلسلة عبر سوق خان الزيت وسوق العطارين لحمل مزيد من الأثقال فوق حقيبتي المدرسية الثقيلة.

وجاء التغيير الإضافي على حياتي المدرسية، بعد أن بدأ الإحساس الفطري بالوطنية يتشكل في نفسي الصغيرة، فقد سمعت نداء لم أعد أذكر مَن أطلقه وكيف وصل إلى مسامعي، وذلك في سنة ١٩٧٠، بأن مباني المعهد العربي الكويتي في أبو ديس عرضة للمصادرة ولتحويلها إلى معسكر للجيش الإسرائيلي، وأنه سيتم تحويلها إلى مدرسة لإنقاذها، فتركت مدرسة عبد الله بن الحسين وذهبت وسجلت اسمي في المدرسة الجديدة، حتى من دون مشاورة والدي، وشعرت حينها بأنني أقوم بعمل بطولي. وقد اكتشفت أن مباني المدرسة الجديدة الضخمة ذات الساحات الواسعة غير مجهزة لاستقبال الطلاب بعد، فعملنا مع المدرسين والموظفين والمتطوعين على إزالة الركام من داخل المباني وتنظيفها، واستمر عملنا عدة أيام حتى استطعنا وضع المقاعد المدرسية وتوفير الحد الأدنى من الشروط لبدء العام الدراسي.

لقد أدى انضمامي إلى المعهد العربي في أبو ديس ليس فقط إلى تغير إضافي بعلاقتي بالمكان، بل إلى اكتشافي أحاسيسي الوطنية أيضاً، وكذلك اكتشاف الحركة الوطنية التي انضممت إليها في العام نفسه، وكان عمري لم يتجاوز الرابعة عشرة. وكان أشد ما أثّر فيّ في تلك المدرسة هو مدرس اللغة العربية الأديب محمود شقير، الذي ساهم إلى حد كبير في تشكيل مستقبلي، ولا أعرف إن كان يعلم ذلك، لكن كلماته وتوجيهاته الوطنية فعلت فعلها في نفسي. ولاعتقادي بأنني طالب مميز، قررت الالتحاق بأهم المدراس في حينها، وهي المدرسة الهاشمية في البيرة التي تضم الصفين الثاني الثانوي والثالث الثانوي العلمي فقط، وقد احتوت على خمس شعب من كل صف، وهي الوحيدة في الضفة الغربية المنظمة على هذا المنوال.

على أي حال، لم يمضِ على بلوغي السادسة عشرة سوى أشهر معدودات، أي بعد التحاقي بالهاشمية بستة أشهر، وكنت في الصف الثاني الثانوي (الصف الحادي عشر)، حتى وجدت نفسي معتقلاً، وهكذا عرفت مَن دمر حارة المغاربة من وجوه أُخرى.

القراءة على الأسوار وإلقاء الحجارة من خلف الجدران

من ذكرياتي الأُخرى التي سبقت الاحتلال، أنني تعرفت، بل أدمنت، ولا أعرف السبب، على القراءة بسن مبكرة؛ لكن لأن القدس لم تكن تنعم بمكتبات عامة متاحة أمامي على الأقل، فقد اهتديت في سن الثامنة أو التاسعة إلى مصدرين للكتب والمجلات، كلاهما يقع في باب العمود. الأول كان يسمى "بسطة شبانة"، وصاحبها من عائلة احترف كثير من أبنائها بيع الجرائد اليومية والمجلات، وقد اتخذ زاوية باب العمود من الخارج مكاناً لبسط بضاعته، وكان يتعاقد معي على شكلين: الأول أن أستعير المجلات بنصف قرش وأفترش الأرض بجانب بسطته، أي في مبنى باب العمود، حتى أنتهي منها وأعيدها له بشرط عدم توسيخها أو تمزيق أي من أوراقها أو "جعلكتها"، وكانت جلستي تستمر ساعة أو عدة ساعات إلى أن ينتابني التعب أو العطش والجوع؛ الخيار الثاني كان يكلف قرشاً كاملاً، ويبيح لي استعارة المجلة الكبيرة والدسمة مثل "مجلة العربي" ليوم كامل، لأنني لا أستطيع إنهائها في مفترش باب العمود، وبالتالي كنت أصطحبها وبكل فخر واعتزاز إلى البيت، على أن أعيدها في اليوم التالي.

أمّا المصدر الثاني لمناهل "ثقافتي"، فكان لا يبعد كثيراً عن الأول، ويقع داخل باب العمود أمام مسجد الشيخ لولو (الزاوية اللؤلؤية)، وكان يسمّى "المناضل الجريح"، وأحسب أن صاحبه كان ممّن قاتلوا في صفوف الجهاد المقدس بقيادة الشهيد عبد القادر الحسيني. وكان له يد بأصبعين اصطناعيين بعد أن فقد ذراعه كلها في الحرب، فركّب ذراعاً اصطناعية لم أشاهدها قط، لكنني كنت أشاهد الأصبعين الصناعيين المغلفين بأنابيب مطاطية سوداء يخرجان من كُمّ قميصه، ومحله كان عبارة عن كشك (صندوق) معدني، يبيع فيه الكتب المستعملة فقط، وكان يعيرني الكتاب الذي أختار بقرش لمدة ثلاثة أيام. وفي هذه المرحلة بدأت رحلتي مع نجيب محفوظ، ومحمد عبد الحليم عبد الله، وإحسان عبد القدوس وآخرين. وفي الحقيقة فإن علاقتي بمزوّدي ثقافتي استمرت بعد الاحتلال بأنماط متنوعة، حتى بعد أن افتُتحت مكتبة القدس العامة، وأصبحتُ من أنشط زبائنها، فشبانة ما زال يفترش باب العمود حتى اليوم، في حين لم أعرف مصير المناضل الجريح، ولا أذكر كيف اختفى كشكه.

أمّا مكاني المفضل للقراءة، فبالتأكيد لم يكن بيتنا المكتظ في البلدة القديمة، وإنما كان سور

القدس الجنوبي، وكان لا يبعد كثيراً عن بيتنا في حارة الشرف. وسور المدينة في هذه المنطقة لا يرتفع عن مستوى الأرض من داخل المدينة إلاّ بضع درجات في المنطقة الموازية لحارة اليهود. فقد كنت أجلس بين أسنان السور حيث أركن ظهري إلى إحدى مسنناته، وأمدّ قدمَيّ، إن وصلتا أصلاً، حتى حدود المسننة التالية. أمّا أسفل السور من خارج المدينة، فكان ارتفاعه يزيد على عشرة أمتار، وكان المنظر خلاباً بقدر ما كان مخيفاً، إذ كانت تنبسط أمامي مساحات شاسعة من سلوان ورأس العمود وجبل الزيتون وجبل المكبّر وحتى السواحرة، وأجمل ما كنت أرى في الأفق البعيد جبل الفريديس المسمى هيروديون، أو قصر هيرودوس، الذي يقع إلى الشرق من مدينة بيت ساحور، حيث كان يظهر مثل فوهة البركان، ولم تُكتب لي زيارته إلاّ بعد ذلك بعقود.

كنت أصل إلى نقطتي المفضلة ولا أبرحها حتى أنتهي من قراءة ما أحضرت معي. وكانت جلستي هذه تستمر ساعات، وقد أُحضر إلى جانب الكتاب ساندويشاً صغيراً ممّا تيسر في البيت من لبنة أو مربى أو دبس العنب. ولا أذكر يوماً أنني تأخرت عن إعادة كتاب، أو أنني أعدت كتاباً لم أقرأه، ولا أدّعي بأني كنت أفهم كل ما أقرأ، لكنني كنت مصراً على قراءة كل ما كان يقع بين يدَي حتى نهايته، على ألاّ تزيد تكلفته على قرش، لأن القرش على الأغلب شكّل مصروفي ليومين. ولم أتردد في أن أخفي قرشاً أحياناً لأضعه في يدي المناضل الجريح، وقد تمتد يدي إلى جارور دكان والدي لاستلال قرش من دون معرفته تحقيقاً للغرض نفسه، الأمر الذي كان يكلفني إحساساً بالذنب لأيام، لا ينتهي إلاّ بإقناع النفس بشرعية ما اقترفته، وبأنني لن أدخل النار بسبب هفوة صغيرة.

وبعد الانتقال إلى البيت الجديد، تغير مكان "مكتبي"، وانتقل إلى حرش صغير موجود على السفح الشرقي لجبل النبي داود الذي لا يبعد كثيراً عن بيتنا الجديد، وهناك تعرفت إلى عدد من جنود الجيش العربي الأردني، وكانوا كلهم من شرق الأردن، وخصوصاً من منطقة الكرك، وكانوا يحبون وفادتي إليهم، فيكرمونني بالشوكولاتة، وقد يكون السبب أنني أذكّرهم بأطفالهم أو لأنهم استكبروا فيّ تركيزي على القراءة، وأنا استكبرت فيهم كرمهم ولطفهم وبساطتهم التي لن أنساها. وكان بين الأشجار مجموعة من الخنادق والممرات التي حفرها الجيش الأردني تحضيراً لمعركة القدس، ودفاعاً عن النفس.

وفي الحقيقة، فإنه عند اندلاع الحرب وسماعنا أصوات الانفجارات في معسكر أولئك الجنود، شرع مصيرهم يقضّ مضجعي، واشتد قلقي وأنا في بيت جدي في أثناء الحرب، ولهذا ما إن سنحت لي الفرصة بعد عودتنا من البلدة القديمة، حتى تسللت خفية إلى جبل النبي داود، وبحثت بين الخنادق المحترقة حيث وجدت خمس جثث منتفخة تهيّأ لي أنها لأصدقائي الجنود، بعد مرور أيام على استشهادهم، فجررتهم جثة بعد الأُخرى ووضعتهم معاً في أحد الخنادق وأهلت التراب وبقايا الشجر عليهم، من دون أن أتمعن في أي منهم، ويبدو أنهم استشهدوا جرّاء غارة جوية عليهم باستعمال قنابل النابالم، إذ يبدو أن حريقاً التهم مواقعهم. قرأت الفاتحة على أرواحهم كما اعتدت في طريق باب السلسلة، وغادرت المكان وقد جف حلقي، وطردت صورتهم من ذاكرتي كلياً، وبقيت أذكرهم على حالهم التي تركتهم عليها قبل الحرب. ولم أعرف مصير الجنود الآخرين، إن كانوا قد لقوا المصير نفسه، أو إن كان آخرون قاموا بدفنهم كما فعلت أنا، أو أنهم نجوا من هذا المصير وانتقلوا إلى الأردن. لا أذكر أسماء ولا عناوين، وأعتقد أنني أذكر وجوههم فقط، لكنني لم أعد متأكداً من ذلك أيضاً، فقد اختلط الحابل بالنابل، كما أن الحروق غيرت المعالم، غير أني ما زلت لا أريد تذكّر وجوههم، وقد تُركوا وحدهم يموتون بعيدين عن عائلاتهم، ودُفنوا بطريقة لا تليق بمدافعين عن القدس. أشعر بالندم الدائم لعدم تفتيشي أغراضهم لأحفظ ذكراهم لي ولأهلهم، لكن هول صدمة مشاهدتهم على تلك

الشاكلة، وصغر سني، حالا دون القيام بأي شيء سوى إكرامهم عبر دفنهم.

لا أعرف ماذا جرى لقبرهم الجماعي الذي لم يحظَ حتى بشاهدة قبر، كما لم يحظَ بفاتحة غير فاتحتي، لكن سلطات الاحتلال قامت لاحقاً بتجريف المنطقة وإنشاء موقف للحافلات في مقابل باب النبي داود من الخارج، بحيث لم أستطع لاحقاً حتى قراءة الفاتحة على قبرهم، لأنني لم أعد أستطيع تشخيص موقعه. لم أروِ هذه القصة حتى لأهلي، ولا أعرف السبب، لكنني أثبتها هنا لأول مرة.

بالنسبة إلى "وعيي" بإسرائيل قبل سنة ١٩٦٧، إن كان من الممكن تسمية ذلك "وعيا"، فجرى بسبب أسئلتي الكثيرة، وتجوالي الذي لا ينتهي بين أزقة البلدة القديمة، فقد تساءلت أكثر من مرة عن سبب إغلاق ثلاثة من أبواب المدينة: باب الخليل، وباب الجديد، وباب النبي داود، وانتشار الجيش الأردني فوق السور الرابط بين هذه الأبواب، والممتد من باب العمود إلى باب المغاربة محتلاً النصف الغربي من السور الشمالي، أي إلى الغرب من باب العمود، والسور الغربي كله، وجزءاً من السور الجنوبي، وهذه مجتمعة تشكل نصف امتداد السور، أو أقل قليلاً. كان منظر هذه البوابات من داخل المدينة بشعاً، إذ سُدت بحجارة غير مهذبة وباستعمال الأسمنت، وبُنيت بشكل عشوائي منفّر وعلى عجل، وذلك داخل البوابات العثمانية البديعة، وكانت هذه البوابات بالنسبة إليّ نهاية العالم الذي يُخفي وراءه ما لا أعرف ولا أفهم. وكان وراء ذلك السور أيضاً بيوت جيراننا في البلدة القديمة، وكان أولاد اللاجئين من جيراننا يقولون لي إن بيتهم خلف باب الخليل، من الجهة الأُخرى. وفي الحقيقة لم يتسنّ لي في طفولتي داخل البلدة القديمة أن أرى بتمعن ما يوجد وراء السور الغربي؛ لا أعرف السبب، لكن ذاكرتي لا تكتنز من هذا المنظر شيئاً.

أمّا خارج الأسوار في حي المصرارة، الكائن مباشرة إلى الشمال من باب العمود، فتدربت على ركوب الدراجة الهوائية، إذ كان "البازيان" يؤجر الدراجات. وفي نهاية الحي كان ثمة سور غير مرتفع لكنه يمنع الرؤيا، وقد انتشر عليه بعض من جنود الجيش العربي الأردني، وكان فيه فتحات صغيرة تشبه كوات ("مزاغل") سور القدس، فكنت أطل من خلالها إلى "عالم الآخر"، وقد شاركت أكثر من مرة مجموعة من الأطفال في مثل سني في إلقاء الحجارة على الجانب الآخر، وذلك على مرأى جنود الجيش العربي الأردني وتشجيعهم، وكان "الآخر" يبادلنا إلقاء الحجارة، واستطعت أكثر من مرة مشاهدة أطفال "الآخر" في أثناء تبادل قذف الحجارة. وفوق ركام حارة المغاربة رأيت الآخر كاملاً لأول مرة منتصراً وراقصاً ومدججاً بالسلاح وموشحاً بالسواد والقبعات. ■

حزيران بلا قتال

فواز طرابلسي*

الأزرق من حزيران/يونيو ١٩٦٧

باللون الأزرق أتذكر حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. كانت السماء الحزيرانية ذات زرقة صافية. وإلى الأزرق الطبيعي، أضافت التعبئة للحرب لونها الأزرق. كانت بيروت متألقة في دثارها الأزرق، فقد طلى أهلها النوافذ بالطلاء الأزرق، أو ألصقوا عليها الورق الأزرق تنفيذاً لتوجيهات "الدفاع المدني" التي قضت بالتعتيم بالأزرق تحسباً للغارات الجوية الليلية. وصار ممنوعاً على السيارات التجول ليلاً إلاّ إذا كانت مصابيحها مطلية بالأزرق أيضاً. وقد قيل لنا آنذاك في تفسير التعتيم بذاك اللون، بدلاً من اللون الأسود مثلاً، أن الأزرق هو اللون الذي يبدد الضوء.

وقعت علينا حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ ونحن في أوج الحماسة والترقب، نستدعي الحرب استدعاء، ونردد مع فيروز والرحابنة: "الآن الآن وليس غداً". في الجامعة الأميركية، سيطر الطلاب القوميون واليساريون على الوضع. أقمنا إذاعة مفتوحة على إذاعة "صوت العرب" في "الوست هول" تبثّ الأناشيد الحماسية وأخبار المعارك والانتصارات. ونظّمنا تظاهرة صاخبة، داخل الحرم الجامعي، في اتجاه السفارة الأميركية، الملاصقة للجامعة من جهة منامة الطلاب والملعب. وبينما كانت تظاهرة شعبية تحاصر السفارة من أمام جهة "كورنيش" المنارة والبحر، كنا، نحن طلاب وطالبات الأميركية، نلاقيها من داخل الحرم الجامعي، فنراشق المبنى بالحجارة، والبعض منا يقذف زجاجات "المولوتوف" الحارقة، محاولاً عبثاً إدخالها عبر النافذة الوحيدة المواجهة لنا، حيث يتلصص علينا منها أحد أفراد "المارينز" بشيء من التهكم. ومن أبرز المقنبلين طالب سيتبوأ منصب رئيس حكومة لبنان في مناسبة "وطنية" شبيهة.

لأول مرة، عُقد التعاون في "المعركة القومية المقدسة" بين الطلاب القوميين واليساريين وأعضاء حزب الكتائب و"الرابطة اللبنانية"، بعد أعوام من النزاع الضاري بيننا، وخصوصاً عندما كانوا يقررون منعنا من الاحتفال بذكرى الوحدة المصرية ـ السورية فتنشب معارك لم تكن تخلو من الوحشية وإسالة الدماء، دماء "الرابطيين" وكانوا أقلية في الجامعة. فانضم عبد الله أبو حبيب، ممثل "الرابطة اللبنانية" وحزب الكتائب، إلى عضوية اللجنة الطلابية التي أخذت تسيّر شؤون الجامعة.

أهابت الإذاعة بالطلاب التطوع للقتال، فتدفقوا بالعشرات. ولم يكادوا يصلون، فتيات

* كاتب ومؤرخ لبناني.

وفتيان، إلى دمشق وعمّان حتى كان وقف إطلاق النار أُعلن. وفي بيروت، انتهت حربنا باقتحام قوات الأمن حرم الجامعة وإخراجها الطلاب المعتصمين وإقفالها الأبواب في وجههم.

في مجموعة "لبنان الاشتراكي" قررنا إصدار بيان ينتقد دور الجيش في حراسة المصالح البريطانية والأميركية ومكاتب شركات النفط في بيروت بدلاً من قتال إسرائيل في الجنوب. تأخرتُ في كتابة البيان فتولى كتابته رفيق آخر. وزعنا البيان الذي وقّعناه باسم "اشتراكيون لبنانيون" على نطاق واسع وبأساليب وتقنيات متنوعة، بما فيها التوزيع الليلي تحت أبواب البيوت. من جهتي، كنت ضمن مجموعة توزيع متجولة في سيارة أميركية فارهة تحمل اللوحة الزرقاء لمجلس النواب، وتخص والد أحد الرفاق. أُلقي القبض على أحد الشباب من حيّ النبعة، وهو يوزع البيان، فأخذنا نسعى للإفراج عنه لدى مَن كنا نسميهم "الزعامات التقليدية" التي كنا ننتقدها بحدة في كتاباتنا والبيانات. قصدت المختارة لمقابلة كمال جنبلاط برفقة أحد الأصدقاء فلم نجده. فالتجأنا، أنا ومحمود سويد، إلى عضو قيادة الحزب الاشتراكي، محسن دلول، في "وكالة أنباء الشرق الأوسط"، فأجرى اتصالات تتعلق باعتقال رفيقنا، وبدلاً من أن يعدنا خيراً، نصحنا بأن نتوارى إذا كان لنا علاقة بالأمر.

في المساء كان التحلق حول أجهزة التلفزيون الأسود والأبيض للاستماع إلى إعلان جمال عبد الناصر استقالته. قليلون وقليلات نجحوا في حبس الدموع. الشعور العارم هو الشعور بالتخلي. حالة طفلية طغت على الجميع. في اليوم التالي، توالت التظاهرات. شاركت بيروت بأوسع تظاهرات ومسيرات شعبية عرفتها في تاريخها إلى ذلك الحين. انفجر الغضب الشعبي. وجدتني وسط التظاهرات والمسيرات العارمة التي تطالب جمال عبد الناصر بالعودة عن استقالته. حُطّمت الواجهات الزجاجية للمحلات التي كانت ترفع يافطات بالفرنسية والإنجليزية، وأُجبر سائقو السيارات الوافدة إلى العاصمة أو المتجولة فيها، على أن يخطّوا على زجاجها بالدهان الأبيض كلمة واحدة: "ناصر"، وإلاّ تتعرض سياراتهم للتحطيم.

في صباح اليوم التالي على التظاهرات، اقتادني عنصران من أفراد المكتب الثاني من شقتي في شارع مدحت باشا بالظريف إلى مكتب في شارع بدارو في بيروت. فتشوا الشقة فلم يعثروا على شيء بعد أن كنت قد نقلتُ جميع الوثائق والأوراق وآلة "الرونيو" الطباعية إلى بيت أحد الرفاق الذي يشغل أخوه منصباً كبيراً في الجيش. في التحقيق أنكرت معرفتي بالمعتقل وبالبيان، كما أنكرت معرفتي بمَن يكون الطرف الذي كتب البيان وطبعه ووزعه، أو مَن هم "اشتراكيون لبنانيون" الذين وقّعوا عليه. لم يطل التحقيق. جاء أحد أصدقاء العائلة من وجهاء مشغرة معروف بعلاقاته الوثيقة بالمكتب وأعادني إلى الفندق العائلي في بحمدون. ودّعني المحقق: هذه المرة نخليك كرمى لعين الأستاذ رفيق. وهو اسم صديق العائلة.

كان الإخلاء موقتاً. في صباح اليوم التالي وفد اثنان من شباب المكتب الثاني إلى الفندق طالبين بأن أرافقهما إلى بيروت. وُضعت في المقعد الخلفي لسيارة "فولكسفاغن" بيضاء، وهي ماركة مسجلة لأفراد "المكتب الثاني"، واعتُقلت في ثكنة الأمير فخر الدين قرب "الأونيسكو". بعد برهة وجيزة من إقفال باب الزنزانة الانفرادية عليّ، سمعت نقراً على الباب. فتحت الناقذة الصغيرة لألقى الرفيق الذي عرّفني بنفسه ولم أكن أعرفه من قبل. بلّغني أن الهياج يعمّ أوساط العسكريين، وأنه تعرّض لضرب مبرح، ودوس بالأرجل، وتهديد بحرقه حياً بعد أن صُبّ عليه "الكاز"، فأعطى اسمي بدلاً من أن يُفشي بأسماء رفاقه في الحي، لاعتقاده، عن حق، أن رفاق بيروت، والعلنيين منهم بصورة خاصة، أقدر على تدبر أمرهم بالوساطات من سكان النبعة.

في حضرة نائب رئيس "جهاز الأمن المشترك": مَن أنتم لتعلّمونا كيف نخوض الحرب؟ درستُ أعواماً لأتعلم كيف أقود سرية، وتريدون تعليمنا كيف تقاد الجيوش؟ كأنه يقنع نفسه، هو المعروف بميوله الناصرية. استطرد ليشرح لي أنه بحسب اتفاقية الدفاع العربي المشتركة، إذا كان ثمة تفوق جوي عربي، فإنه يتعيّن على الجيش اللبناني التقدم في الأراضي الفلسطينية ليحتل عكا. أمّا إذا كان هناك تفوق جوي إسرائيلي، فإن دور الجيش اللبناني يقتصر على حماية حدوده.

كان صيفاً بالأزرق. والسماء أيضاً زرقاء صافية من وراء الأسلاك الشائكة. والشمس ساطعة على المربع الصغير حيث يتحرك بضعة شبان وكهل يحاولون تعريض أكبر مساحة ممكنة من أجسادهم للشمس. أيُّ هدوء في هذا اليوم الحزيراني الجميل.

عندما سمحوا لي أخيراً بأن أخرج إلى التشميسة، أسرعت إلى حنفية الماء وكوّرت يديّ الاثنتين تحتها وارتشفت الماء مرة، واثنتين، وثلاثاً، أربع مرات، ثم مسحت وجهي وزفرت. وجدتهم متحلقين حولي شأنهم أمام كل معتقل جديد. وبدأت حفلة التعارف الحذرة، وكل واحد يروي روايته وهو فيها بريء ومظلوم. ثم بادرني أحدهم: وما أخبار الحرب؟

- أي حرب

ما كانوا أدركوا بعد أننا خسرنا الحرب.

- وعبد الناصر؟

- استقال ورجع عن استقالته.

رمى أحدهم قصعة الماء المعدنية أرضاً. والعكاري المتهم بتهريب الحشيشة تمتم: "العرب جرب"، وبصق أرضاً. اعترف ابن عاليه المتهم بسحب مسدسه في ساحة القرية ضد أحد محازبي جنبلاط: "ما كنت حب عبد الناصر. جماعة جنبلاط هن اللي بيحبّوا عبد الناصر. اليوم، أنا معه، بس، اللـه يسامحك يا عبد الناصر، سوّدت وجهنا قدّام العالم."

صمت البعلبكي طويلاً: "بالضيعة عندي عصفور بالقفص. بعد ما أطلع من الحبس، راح أفتح له باب القفص ليطير. يا رجال، ما في أحلى من الحرية."

كأن يوسف شاهين كان جالساً بيننا عندما كتب سيناريو فيلم "العصفور".

وحده ظل صامتاً. يجلس القرفصاء وقد اتكأ بظهره إلى الجدار. هو شيخ سبعيني عجوز نحيل يرتدي جلباباً ويعتمر "عرقية" على رأسه. وكان ينصت بانتباه، ويجهد لأن يعرّض كل جسمه للشمس. سألتهم عنه فقالوا: يهودي من وادي أبو جميل. ابنه في إسرائيل.

تقدمتُ نحوه: وأنت يا عم، بأي تهمة؟

- يا ابني، لا أحد يأتي إلى هنا وهو بريء.

ثم عاد إلى صمته. وبعد قليل، قام ومشى بتثاقل. أقعى ليتناول قصعة الماء المرمية أرضاً، ومسحها بطرف جلبابه، ثم ملأها من الحنفية وتوجّه نحو المرحاض وأغلق الباب الخشبي بهدوء...

أمّا أنا، فكأني، وأنا أروي للمعتقلين تفصيلات ما آلت إليه الحرب، أقنعت نفسي بأن الهزيمة وقعت فعلاً. فلمّا أُقفل عليّ باب الزنزانة في العشية، وضعت رأسي بين يديّ وبكيت.

سيق بي مساء إلى المحقق، وتمكنت من التملص من تهمة كتابة البيان بسبب خطأ ارتكبه الرفيق الذي كتبه، إذ ذكر أن شركة "شل" للنفط هي شركة أميركية في حين أنها بريطانية - هولندية. النافذة ذات قضبان حديد. وعلى الطاولة تقرير استرقت النظر إليه عندما خرج المحقق يتحدث عن اجتماعات تُعقد في النبعة مع ذكر أسماء الحضور واسمي بينهم. عاد المحقق وأدخل أحد السجانين. أمرني بالاستلقاء أرضاً ورفع الرجلين على كرسي. إنها الفلقة. خلعت جواربي وانتظرت الضربة من

عصا غليظة بيد الرجل. بعد أول ضربة قفز المحقق من خلف المكتب: أربأ بك عن أن تتعرض للضرب وأنت طالب جامعي ومثقف وابن عائلة وطنية. قلت لنفسي: لديهم أوامر بعدم الضرب أو التعذيب. تصلّب يا فتى.

أُفرج عني بعد عشرة أيام في ضيافة الأمير، والمثول أمام المدعي العام العسكري في المحكمة العسكرية، لا لمعارفي النفطية طبعاً، وإنما بناء على وساطات مناطقية وعائلية. والجهتان المتدخلتان لمصلحتي كانتا على طرفَي نقيض من الاستقطاب السائد تجاه الموقف من الحرب، بين مَن يطالب بالمشاركة في القتال، ومَن يعتبر أن لبنان نجا من كارثة محققة، وخصوصاً بالنظر إلى ما آلت إليه المعارك.

مهما يكن، بدا الاعتقال في ضيافة الأمير فخر الدين - ولو في عزّ سطوة "المكتب الثاني" ووسط الأجواء المتوترة التي أثارتها حرب حزيران/يونيو - أقرب إلى نزهة جميلة على شاطئ البحر في يوم ربيعي! ■

حزيران بلا قتال

إلياس فركوح*

٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧:
فَتق واسع لم يُرتق بعد

.. وماذا لو هبطوا علينا بالمظلات؟
لن يجرؤوا، سنصطادهم كالعصافير، سنبيدهم!
لكن الجيش نُقل إلى هناك، وعمّان مَن يحميها؟
الجيش الشعبي

كانت المرة الأولى التي يسمع بها الفتى الممتلئ حماسة بهذا "الجيش الشعبي"، فتدفق فيه الفضول. أليس هو من الشعب؟ ألم يبلغ سنّ الفتوة؟ سأل والديه، فلم يجيباه. ماذا يستطيعان أن يقولا والحرب، بالنسبة إليهما، كلمة تخلق دوياً في قلبيهما هو الهلع من دمار وموت مؤكدين، لكنها تُحجم عن الإفادة بوسائل الحماية من شرورها القادمة لا محالة؟! وهل من وسيلة واحدة يعرفانها تحمي القلوبَ من هلعها؟! الصلاة! غير أن الفتى كان بعيداً، وبعيداً جداً، عن ذاك الخوف الهائل الذي عصر قلبَي الوالدين محدثاً فيهما ذاك الانقباض الراجف. كيف يخاف من حرب موعودة ينتظرها الجميع منذ أعوام وأعوام، وبات هو، بدءاً من هذه اللحظة، فرداً متحفزاً داخل كتل هذا "الجميع"؟! وها هي "الموعودة" على مرمى حجر أو أدنى! الحرب قريبة تطرق أبواب البيوت بأحمال ساكنيها من مواد غذائية وشموع (كاحتياط لوقت قد يطول)، وتنقر النوافذ بمناقير طيور غريبة لا تُرى، لكنها ترفرف هائجة في الصدور، وتصخب على مدار الساعة بالخطابات والأناشيد تصعد من حلوق الإذاعات ومطربيها، مالئة هواء الغرف والمقاهي برايات نصر قريب مؤزّر!

إذاً: كان التاريخ يتهيأ لانعطافة كبرى يخبئها في كتابه فوق صفحة لم تُكتب سطورها بعد، بينما لا أحد هناك، داخل البيت، يعرف كيف يتهجّى كلمات الأيام القريبة المقبلة؛ إن "لغة" التاريخ عصية على مَن لا يصنعونه! وما كانوا يتخيلون أنهم مجرد "قرّاء" لأحداثه

* قاصّ وروائي وناشر أردني.

التي عاشوها فعلاً، وعاينوها معاينة البصر المباشر واللحم الحي. مجرد "قرّاء" لجزء صميم من حيواتهم، وبالتالي من مصائرهم ومآلاتهم، لم يقرروه بأنفسهم، أو باختيارهم ـ هذا إذا ما سئلوا ـ ولم يكتبوا كلمة واحدة منه، وكانت تلك القراءة متأخرة ولاحقة!

كان البيت يموج بمشاعر متناقضة. كان يهتز على وقع قلق عظيم من جهة الكبار، وحماسة مندفعة مستمَدة من تفاؤل الناس وآمالاهم بالعودة، ولا يدرك كيف هي الحسابات لدى الفتى، وأسئلة متوجسة من طرف إحدى الأختين ـ فالكبرى هناك في الجامعة الأميركية في بيروت. غير أن الجميع ضُفروا في جديلة خوف واحد توزع على تساؤلات تحت السقف: هل ستقع الحرب؟ ومتى؟ هل ستصل إلى هنا؟ وماذا عن حفل تخرُّج الأخ الأصغر ميشيل؛ فبعد يومين سيذهب الجميع إلى هناك لحضور ذلك الحفل، وسيارات "سفريات الرشيد" لم تنقطع رحلاتها بين العاصمة عَمّان والقدس، وها هو مكتبها في الزقاق أسفل البيت، فليسألوا.

سألوا، وتلقوا الجواب: "الخط" مفتوح في الاتجاهين. عندها، هدأ خوفهم قليلاً، لكنهم ظلوا على نار القلق الغامض: ربما يعلقون جميعاً في شدق الوحش، بعيداً عن مدينتهم!

المسافة بين عمّان والقدس، مروراً بالأغوار وأريحا، تستغرق ساعة واحدة بالسيارة، أقل أو أكثر ببضع دقائق. غير أن "خط" الدم الذي أريق، والحبل الذي جدل جثث الجنود قبل أن تنفق متفحمة بنار "النابالم" وقاره، والواصل بين المدينتين، لو حدث أن قيس منذ تلك اللحظات في تلك السنة في الأيام الأولى من حزيران/يونيو ١٩٦٧، لكان بلغ حتى الآن، في طوله أعماراً متكاثرة؛ أعماراً توارث أصحابها كوارث تكفي أجيالاً لأن تُطمر تحت أسئلة تتعلق بتاريخها، والإجابات عنها زائفة.. أو ناقصة.. أو مشروطة بقانون المستبد الغالب؛ وها هي لا تزال تسدد ثمن ثوب اتسعت فيه الفتوق على أي راتق!

ثوب هو التاريخ،
أو هو التاريخ مكفّناً بهذا الثوب؟!

***

أجل: إنها فلسطين، وها موعدنا مع تحريرها قد حان!

ذاك كان صوتي، أنا الفتى. الصوت المتردد داخلي، والذي لم أكن مؤهلاً، وقتذاك، على التشكيك في معناه الوثيق، أو التساؤل عن إمكان تحقيقه. كيف للتشكيك أو للتساؤل أن يداخلني، بينما "الأمة" تزيح عن كاهلها خلافاتها، وقادتها يلتقون على هدف نبيل بوصلته فلسطين "المغتصبة"، وجيوشها تتأهب للذود.. وربما الانقضاض أيضاً؟ الانقضاض وقد جعلوا المغتصب الصهيوني داخل حلقة متماسكة لن يفلت منها إلاّ إذا خرج فارّاً، من حيث جاء مستعمِراً، إلى البحر!

ألهذا كان "أحمد سعيد"، المذيع النجم في إذاعة "صوت العرب" من القاهرة، يبشّر الأسماك بـ"وجبات دسمة"؟

الصحف تنشر الصور: الدبابات تعبر الشارع الرئيسي، بمحاذاة البنك العربي، والناس يحتشدون

على الجانبين يلوّحون ويهتفون، والجنود يردون برفع الأيدي. إنها الأيدي نفسها التي كنت أراها مرسومة ومطبوعة، بقبضات مضمومة قوية، تعلو الصفحات الأولى في الجريدتين: "القدس" الصادرة من القدس، و"الدستور" الصادرة من عمّان. أذكر هذا جيداً، لأن "يوسف"، بائع الجرائد والمجلات على الرصيف بمحاذاة محلات "عزيزية" في وسط البلد، كان يأتمن أكداس بضاعته في آخر النهار خلف باب بيتنا المطل على "مطعم هاشم"، ليعود فيعرضها صباحاً: مجلات "المصور" و"آخر ساعة" و"روز اليوسف" المصرية، على أوراقها صور شتّى: خرائط جغرافية حيث يؤشّر إلى مضائق تيران؛ قيادة عسكرية موحدة وغرفة عمليات عربية مشتركة؛ صواريخ القاهر والظافر؛ الجبهة المصرية أُخليت من جنود حفظ السلام الأممية؛ مذبحة "السَّمُوع" في الضفة الغربية ما زال صداها يتردد في السرد المسهب كخلفية وسبب من أسباب التصعيد؛ و، و، و...

ولم أنتظر. لحظة أُعلنت مراكز التطوع لـ "الجيش الشعبي" بحسب مناطق عمّان، تحركت. أخبرت والدي، وانطلقت عارفاً أنه ليس مستسيغاً الفكرة. مشيت إلى هناك، إلى شارع "وادي السير"، حيث "مدرسة الزهراء" للإناث. كانت عطلة المدارس الصيفية، وكنت ملهوفاً أتوقع حشد طوابير من الشباب وقد سبقوني! أغذّ السير وأتساءل إذا ما كانوا سيقبلون بي، وأنا لست ذا خبرة بالسلاح، أو حتى بالإسعافات الأولية! فقط، كنت واثقاً بأن حماستي كافية لأن أتدرب وأتعلّم في وقت قياسي، وأن ثمة دوراً يتعين عليّ القيام به. إنها معركة فلسطين وتحريرها، ولن أدعها تفلت من مشاركتي. ربما تكون الأخيرة ولن تتكرر، فأفقد دوري في "بطولة" أرويها لأولادي ذات يوم!

لاحت المدرسة من بعيد، مرتفعة عن مستوى الشارع، بأعمدتها وشرفتها العالية السقف، وكان الوقت، على ما أذكر، بين التاسعة والعاشرة صباحاً. مضيت مستبشراً بأني سأكون من أوائل مَن ستسجَّل أسماؤهم. أسرعَت خطاي في شارع شبه خال، والشمس (أذكر هذا كأنه يحدث الآن) تلهب رأسي وتلسع كتفي تحت قميصي الصيفي بكمّيه القصيرين! أنا قادم من جهة مبنى البريد، ومحلات "عصفوركو"، بينما المدرسة هناك في الشارع الكائن على يمين بداية الصعود إلى جبل عمّان. رأيتها من بعيد أولاً، أكثر وضوحاً من سواها كونها تقع عند السفح الأيسر.

بلغتها. بلغت المدرسة، عابراً إليها، ولا أحد!

البوابة الحديدية مواربة، وخلفها، متلطياً بمساحة ظِلّ، رجل يقتعد كرسياً خشبياً من كراسي الصفوف، ويتثاءب! لم يكن من أحد آخر سواه! رفع عينيه إليّ عند اقترابي. رفع عينين أفصحتا عن سخرية ما، فارتبكت! لم أفهم. ولتفادي الحرج الذي أصابني، أجَلْت نظري في المكان قبل أن أنبس بكلمة. وراء الرجل مصطبة قليلة الارتفاع، تتوزع من عندها الدرجات الصاعدة نحو الشرفة على اليمين واليسار. وهناك، أيضاً، لا أحد! سوى أوراق منزوعة من دفتر مدرسي، تتطاير بتثاقل وتحطّ على الدرجات! ذاب الوقت، أو أفْلَتُّ الوقت من إحساسي لحظة أن بادرني الرجل:

"تريد أن تتطوع، يا شَب؟"

"نعم"، أجبته.

"قالوا إن المدرسة أصبحت مركزاً للتطوع"، نطق من غير ثقة بحقيقة ما يقول.

فسارعت من فوري: "نعم. لهذا جئت."

هزّ كتفيه في حركة كائن وقع في حيرة، وقال:

"لكن أحداً من المسؤولين لم يأت!"، وتابع قائلاً: "تعال في وقت آخر. ربما يأتون."

عدت ظهراً، لا أحد! عدت مساء، لا أحد! عدت قبل أن تُظلم، لا أحد!

وهكذا انتهت "تجربتي" مع حكاية التطوع في "الجيش الشعبي". انتهت من دون أن أنسى عينَي حارس المدرسة، والسخرية أفصحت لي عن معناها، فيما بعد!

بعد أعوام وأعوام، أدركت، مثلما أدرك سواي، أن الحروب لا تُخاض في الإذاعات، وعلى وقع الخطابات الملتهبة، وكلمات الأناشيد الوطنية، وصخب النقاشات المتحمسة في فضاءات المقاهي، والمقالات المرتجلة على أعمدة الجرائد. بعد أعوام وأعوام، أدركنا أن الكذب والتبجح في الحروب يعني خسارتها الأكيدة قبل وقوعها، على العكس تماماً من الكذب والتدليس في السياسة، لأنهما يطيلان أعمار كاذبيها فوق مقاعد حكمهم. بعد أعوام وأعوام، أدركت أن إدراكنا هذا كله يوجب علينا إعادة النظر في الثوب/ الكفن الذي ورثناه تاريخاً مفتوقاً إلى حدّ يستحيل فيه رقعه، وأن ما وقع بعد أيام فقط من النظرة الساخرة في عينَي "حارس المدرسة"، إنما هو فَتْق جديد وواسع هلهل القماش كله. بعد أعوام وأعوام، أدركت أن الشمس التي ألهبت رأسي ولسعت كتفي، وأنا في طريقي إلى كذبة "الجيش الشعبي"، هي نفسها الشمس التي أحرقت الجنود المصريين التائهين في صحراء سيناء، فبثّ العدو الشامت عبر إذاعته أغنية شادية:

قولوا لعين الشمس ما تحماشي،

أحسن حبيب القلب صابح ماشي!

إنها السخرية الهادئة في عينَي حارس المدرسة، قبل أيام. وإنها الشماتة المُرّة تدوّي كالصنج من إذاعة العدو، بعد أيام.

***

بدأ حزيران/يونيو ١٩٦٧ يطلّ برأسه، وكان الخميس أول أيامه

رتّبنا مع مدير مكتب "سفريات الرشيد"، في الزقاق أسفل بيتنا، أن يخصص لنا سيارة تقلّنا جميعاً إلى القدس في اليوم التالي: أبي، وأمي، وأختي الصغرى، وأنا، وميشيل؛ إذ سيقام حفل تخرّجه من مدرسته هناك.

الجمعة ٢ حزيران/يونيو: وصلنا إلى القدس. مكتب السفريات خارج السور حيث انتهت رحلتنا، قريباً من مبنى المتحف. سرنا على الأقدام. دخلنا المدينة القديمة من "باب العمود". اجتزنا الشوارع الضيقة بأرضها المرصوفة بأحجار زلقة ما زالت مدببة: الشوارع ذاتها المظللة ببيوتها المتلاصقة التي اجتزتها عشرات وعشرات المرات، ذهاباً وإياباً، حين كنت، إسوة بأخي، طالباً في مدرسة الفرير في "باب الجديد". بلغنا المدرسة وحضرنا الحفل. التُقطت لنا بضع صور (في واحدة منها بدوت متجهماً أقرب إلى العبوس!). مضى اليوم من دون أن يخطر لأي منّا أن هذه الجمعة هي آخر جمعة لنا في القدس!

السبت ٣ حزيران/يونيو: عاد أبي وأمي وأختي إلى عمّان أمس، بينما توجهت إلى بيت لحم لتمضية ليلة عند صديقي سعيد صوالحة، في فندق عائلته الصغير المشرف على ساحة المهد، وبقي ميشيل في القدس للاحتفال مع زملائه بالتخرّج، على أن يعود إلى عمّان في اليوم نفسه.

الأحد ٤ حزيران/يونيو: ربما هو القدر، مجرد أحكام القدر العمياء (أم المبصرة)، عدت إلى عمّان ووصلتها مساء.

كل شيء هادئ، ولا نذير بأي خطر وشيك تتصادى خفقاته في جنبات المدينة ـ على الرغم من الضجيج العالي لحرب قادمة كأنها ليست قادمة!

أخي يستعد لأول أيام امتحانات شهادة الـ .G.C.A، المعروفة بـ "مترك لندن"، والتي ستُجرى في المجلس الثقافي البريطاني في جبل عمّان صباح الغد ـ وكانت اللغة العربية المادة الأولى.

***

الاثنين ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧

هل تراني سأكتب عن التناقض المخزي بين البيانات العسكرية العربية، وحقائق ما جرى على أرض المعارك؟ لا، لن أكتب؛ وإنما سأكرر ما بات مشاعاً في ألف وثيقة مقروءة، ومسموعة، ومرئية. لا، لن أكتب، لأن لا حاجة إلى كتابة تاريخ تلك الأيام "الستة" التي بدأت في ذاك اليوم، وما زالت تتوالى وتتضاعف وتتعمق وتتسع طولاً وعرضاً، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، عبر خمسين عاماً، وها نحن نستعيدها اليوم بوصفنا إياها بأنها كانت "نكسة" ـ بحسب الشعار الذي رُفع آنذاك ـ متستراً على جوهر "الكارثة" التي حدثت، ومخففاً من وقعها، ومُطيلاً من عمر حرب عجيبة في استثنائيتها/ استثنائية في عجائبيتها، حُسمت بـ "الضربة القاضية"، في "الجولة الأولى"، في ست ساعات!

سأستعيد تلك الساعات الغاطسة في أعماق الذاكرة، والتي لم تتجاوز الثماني والأربعين، إلاّ قليلاً، منذ بدأ ذاك اليوم المشؤوم.

- كانت المرة الأولى التي أعرف أن جيش العدو الصهيوني يُدعى "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وها إني الآن أفهم المقولة المفيدة بـ "خير وسيلة للدفاع هي الهجوم" ـ فما بالي إذا كان هجوماً مدروساً، جاداً، على جيوش خذلتها قياداتها السياسية، وألقت بها في حرب لم تتهيأ لها حقاً.
- انتصف ذاك النهار، وأُخرج أخي وزملاؤه من قاعة الامتحانات، وصُرفوا إلى بيوتهم، وأُلغيت الدورة، وخسروا عاماً دراسياً من أعمارهم!
- ما إن أدرك أخي أن القدس "ضاعت"، وأنه لن يستطيع العودة إليها، حتى رأيناه ينبطح على بطنه فوق "الديوان"، ليستغرق في نوبة بكاء ونشيج مديدة وعالية النهنهة! (لم يحقق تلك العودة إلاّ بعد خمسة وأربعين عاماً، برفقة زوجته البريطانية، وبجواز سفر بريطاني، وبصفته "زائراً"!).
- أمّا أنا، وبعد أن استوعبت جزءاً من معنى ما حدث، فإن وعيي يومذاك أبى إلاّ أن يعاند. كان إجراء مكالمة هاتفية خارج عمّان يتطلب الاتصال بمقسم البريد المركزي، وإعطاء العاملين هناك رقم الهاتف المقابل، ثم يوصلون الطالب بالمطلوب!

رفعت السماعة واتصلت بالمقسم، قاصداً الاطمئنان على مَن كانت حبيبتي في ذلك العُمْر، وكانت تقيم في القدس.

جاءني صوت فتاة قالت، فور إخبارها بالرقم:

"يا ريت! يا ريت!"

وكأني سمعت في إثر ذلك، على الطرف الآخر، شهقات مكتومة لبكاء مخنوق!

التفتّ صوب أبي، كأنني أريده أن يسعفني بكلمة، فرأيت دمعة تفرّ من تحت نظارته!

خرجت إلى الشارع، ووجدتني ألتحق بحشد من المسرنمين، يسيرون كأنهم يدورون حول أنفسهم!

***

بعد وقت، كتبت قصة قصيرة كانت الأولى ومتعثرة، سمّيتها: "والرجال يبكون أيضاً!"

ولم تمضِ سوى شهور قليلة، حتى قرأت ما كتبه تيسير سبول، في روايته "أنتَ منذ اليوم":

طاف رجل معظم بلاد العالم ورأى كثيراً من الكوارث إلاّ إنه لم يرَ شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي. وبدا واضحاً أن هذا الشعب قد استحال كائناً واحداً ضخماً ومجروحاً ـ يترنح ببطء. ولم يكن قط ذهول أبعد من هذا. ■

حزيران بلا قتال

غازي الخليلي*

حرب حزيران/يونيو واحتلال نابلس

صباح يوم الاثنين الموافق فيه الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، نهضت مرتاحاً إلى حد ما، إذ كنت قد نمت بعمق الليلة الفائتة، بعد ليال طويلة سابقة أمضيتها أنا وعدد من الأصدقاء والرفاق ساهرين إلى الساعات الأولى من الصباح، نتابع آخر الأخبار عن احتمالات الحرب، ونناقش ونحلل إمكاناتها ونتائجها المحتملة. تناولت قهوتي وفطوري، وغادرت المنزل متوجهاً إلى كلية النجاح الوطنية في مبناها الجديد القريب من منزلنا، والذي أقامته مدرسة النجاح منذ أكثر من عام على مقربة من قرية رفيديا غرب نابلس، وانتقلت إليه حديثاً، وهو المبنى الذي تحوّل لاحقاً إلى جامعة النجاح الوطنية. كنت من ضمن المعلمين المكلّفين بالمراقبة في امتحانات الثانوية العامة، والتي كانت في نهايتها تقريباً.

عندما توجهت ذلك الصباح إلى كلية النجاح الوطنية، لم يكن يدور في خلدي أن الحرب ستنشب هذا اليوم، وكنت أقرب إلى احتمال تراجعها، اعتقاداً مني أن قرار الرئيس جمال عبد الناصر إرسال نائبه زكريا محيي الدين إلى واشنطن لبحث الوضع، يعني أن القيادة المصرية تتجه نحو تسوية الأزمة، وليس الذهاب إلى الحرب.

في الساعة الثامنة تم توزيع الأسئلة على الطلاب الذين باشروا كتابة إجاباتهم كالعادة، لكن قرابة الساعة التاسعة وأربعين دقيقة، وبينما الطلاب لا يزالون منكبّين على أوراقهم، جاء مَن يهمس لي بفرح: "الحرب قامت، وتم حتى الآن إسقاط ٢٣ طائرة إسرائيلية." كتمت فرحتي، وهمست له: "لا تنشروا الخبر كي لا يتشوش الطلاب."

انتشر خبر اندلاع الحرب سريعاً، ووصل إلى مسامع كثير من الطلاب الذين سارعوا إلى تسليم أوراقهم وهم فرحون لاعتقادهم أننا منتصرون، وأننا سنكون بعد أيام في تل أبيب. أخذ الطلاب يتجمعون في ساحة الكلية، وشرعوا يتداولون آخر الأخبار وأعداد الطائرات الإسرائيلية التي سقطت، وكانت الهتافات المعبّرة عن الأمل بالنصر تعلو من هنا وهناك، والكل تغمره الفرحة والثقة بالنصر.

العدوان الإسرائيلي صبيحة ذلك اليوم فاجأ الجميع تقريباً، ولم نكن ندري ماذا يمكن أن نفعله سواء كجماهير أو كطلائع سياسية. غادرت الكلية وأجريت اتصالات مع عدد من رفاقي في حركة القوميين العرب السابقين وبعض الأصدقاء، وخصوصاً من الناشطين سياسياً،

* كاتب وناشط سياسي، من مواليد نابلس في سنة ١٩٤٠، ويقيم حالياً في رام الله.

للتدارس فيما يمكن عمله. كان وضع القوى الوطنية والأحزاب السياسية شبه مشلول، إذ إنها جميعاً كانت عرضة لحملة اعتقالات واسعة منذ نيسان/أبريل ١٩٦٦، ولم يكن لدى الجماهير وطلائعها السياسية المنهكة جرّاء الاعتقالات السياسية المتواصلة التي تعرضت لها، ما يمكن أن تفعله. اتفقنا على تشكيل لجنة طوارئ من عدد من الأشخاص، انبثق منها العديد من اللجان، واتخذنا من المبنى الجديد لكلية النجاح الوطنية ومبناها القديم مركزَين للتجمع والنشاط تناوبنا على المبيت فيهما طوال أيام الحرب. وكنا نتابع أخبار الحرب عبر الراديو ومن مختلف المحطات الإذاعية، وبدأنا نستمع إلى أخبار متناقضة عن سير المعارك، بينما كان صوت أحمد سعيد يلعلع، كأن النصر بات وشيكاً.

في اليوم التالي، قامت تظاهرة في نابلس توجهت إلى مبنى البلدية، وطالبت فيها الجماهير بالسلاح والذهاب إلى الحدود. ولامتصاص الغضب الجماهيري، وُزّعت في ذلك اليوم، العشرات من البنادق من طراز "جي ٣"، تخاطفتها الجماهير بفوضى عارمة، لكن هذه البنادق القليلة، وهي من النوع القديم، لم تكن ذات فائدة في شيء.

في المساء، أدركنا أن الأمور ليست كما تدّعيه الإذاعات العربية، وأصبح الوضع مقلقاً، وبتنا نحرص على سماع الأخبار من مصادر متنوعة، وذلك بعد تأكيد القيادة المصرية أن الهجوم الجوي الإسرائيلي على مطاراتها فاجأها، وأنها بينما كانت تتوقع قدوم الطائرات من الشرق، فإنها جاءتها من الغرب. وأوردت أغلبية الوسائل الإعلامية في ذلك اليوم، ما ادّعته من أن محادثة هاتفيه جرت بين الملك الأردني حسين والرئيس جمال عبد الناصر تضمّنت رصد الرادار الأردني في جبال عجلون لتحرك طيران أميركي معادٍ من الغرب في اتجاه مصر، وقد عززت هذه المحادثة ما دأبت الإذاعات المصرية على ترداده عن مشاركة أميركية في الحرب.

حتى حينه وطوال ذلك اليوم كانت معنويات الناس لا تزال عالية، وكانوا يرفضون تصديق الأخبار الإسرائيلية عن مجريات الحرب على الجبهتين الأردنية والمصرية، وبدأ كثيرون يتحدثون عن تقدم للقوات العراقية لدعم الجيش الأردني، وأن دخول هذه القوات ومشاركتها في الحرب سيقلب الوضع كلياً.

فوجئنا ظهر ذلك اليوم بتدفق المئات من النازحين من منطقة قلقيلية، والذين استقروا مبدئياً في حقول الزيتون في رفيديا غربي نابلس، وأخذنا نعمل على تأمين بعض المؤن لهم، وعلمنا منهم أن القوات الإسرائيلية احتلت قلقيلية، وأنها قد تتقدم في اتجاه نابلس. لم نصدق هذه الأخبار بداية، إذ كنا لا نزال نعتقد أن الوضع ليس بهذا السوء، كما أن البعض ما زال يأمل بقدوم القوات العراقية، لكن ما إن انتصف النهار حتى بدأ بعض الحقائق عن سير المعارك يتكشف، وخصوصاً بعد الخطاب الذي أذاعه الملك حسين ظهر ذلك اليوم، وتوجه فيه إلى الجماهير يحثّها على الصمود والمقاومة. كان واضحاً من لهجة الخطاب ومضمونه، أن الوضع على الجبهة الأردنية انهار، إلى حد كبير، وأن كارثة ستحيق بنا. لكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم ممّا أعلنته الإذاعة الإسرائيلية بشأن اختراق قواتها للمواقع الأردنية في القدس، وأن قواتها تتقدم في اتجاه المدينة، فإن الناس كانوا يأبون أن يصدقوا، ولا يزالون يعيشون في أحلام صواريخ القاهر والظافر التي دأبت مصر على إعلانها بصخب قبل الحرب، والتي لم يُطلَق أي منها خلال الحرب، وكانوا لا يزالون يأملون بتقدم القوات العراقية، ولا سيما أن البعض كان ينقل عن شهود عيان، أن القوات العراقية شوهدت وهي تتقدم في اتجاه الجبهة.

بعد ظهر ذلك اليوم مررت بإخوتي في الفرن، وكانوا منهمكين في عملهم، كأنهم غير عابئين بما يجري، لقناعتهم في قرارة أنفسهم بأن النصر آت، وبأن ما يُروّج من أخبار عن النجاحات الإسرائيلية ليس أكثر من حرب نفسية لتهبيط معنويات الناس. لم أشأ أن أهز قناعاتهم، لكني قلت لهم قبل أن

أُغادر: "يبدو أن الأمور ليست واضحة بعد، وأن سير المعارك على الأرض لا يبشر بخير."

غادرت الفرن وذهبت إلى المقر في كلية النجاح الوطنية، وعلمت من المجتمعين هناك أن مزيداً من النازحين ما زال يتدفق، وأنهم يناقشون سبل مساعدتهم، على الأقل تأمين مواد غذائية ومياه شرب لهم وبعض البطانيات. عندما ذهبنا إلى حيث يتجمعون، وجدنا مندوبين عن الصليب الاحمر بدأوا يمدون لهم يد العون، ويؤمنون لهم بعض الحاجات.

بتّ تلك الليلة في كلية النجاح، وكان الإعتام تاماً في نابلس، إذ إن التعليمات قضت بإطفاء الأنوار تحسباً من غارات جوية إسرائيلية، وبقينا ساهرين طوال الليل نتابع آخر الأخبار. لاحظنا قلّة البلاغات العسكرية المصرية والأردنية عن سير المعارك، في حين كانت البلاغات العسكرية الإسرائيلية تتحدث عن تقدم قواتها على كلا الجبهتين، وتحقيقها إنجازات عسكرية باهرة، لكن لا أخبار عن الوضع على الجبهة السورية.

كانت نابلس تعيش كأن لا حرب تجري بالقرب منها وعلى مشارفها: المحلات مفتوحة، والناس يمارسون أعمالهم كالمعتاد، يستمعون إلى الأخبار والأناشيد الوطنية، ولا تزاحم على تخزين المواد الغذائية. كان الوضع إلى حد ما، كأي يوم عادي: المقاهي ملأى بالرواد الذين يدخنون نراجيلهم بارتياح وبشيء من الفرح، والذين كانوا يتبادلون الأخبار بطريقة لا تخلو من المبالغة، ويستمعون إلى آخر ما استجدّ فيها، وإلى تعليقات أحمد سعيد الحماسية. وكنت أينما أتوجه، أجد الكل يتحدث عن القوات العراقية، ويتبادل آخر الإشاعات والأقاويل بشأنها.

استيقظت صباح اليوم الثالث من الحرب (الأربعاء ١٩٦٥/٦/٧) منهكاً، فقد أمضيت أنا وعدد من الرفاق والأصدقاء ليلتنا في مقر كلية النجاح الوطنية، ولم ننم، وبقينا ساهرين حتى ساعات الصباح الأولى نتابع آخر الأخبار، غير قادرين على تصديق الأخبار الكارثية عن انهيار الجبهتين الأردنية والمصرية واحتلال القدس، كما أعلنت إسرائيل. كنت والذين معي، لا نزال نمنّي النفس ونبرّد أعصابنا المهتاجة بحدوث تطور ما يقلب هذه الأمور الكارثية، وكان البعض لا يزال يُمنّي النفس بقدوم القوات العراقية التي كثرت الإشاعات عن تقدمها نحو الجبهة! عدم ورود أي خبر عن الجبهة السورية لليوم الثالث، سواء من مصادر إسرائيلية أو عربية، أثار بعض الشك لدى البعض منا، وبتنا نسائل بعضنا عن دلالات ذلك.

صبيحة ذلك اليوم الحزين أصبحت أنا وآخرين على قناعة بأن احتلال نابلس بات وشيكا، ولا سيما عندما علمنا أن العاملين في الإدارات الحكومية والأجهزة الأمنية غادروا، في معظمهم، إلى الضفة الشرقية. لكن على الرغم من هذه الأخبار المحبطة، فإنه لم تنتشر أي حالة من الهلع بين السكان، ولم نشهد أي رحيل، لا كأفراد ولا كمجموعات، فالناس باتوا مستوعبين ما جرى في سنة ١٩٤٨، كما أن معنوياتهم بقيت عالية وثقتهم بأنفسهم كبيرة، وإصرارهم على البقاء كبير، مع أنهم لا يملكون ما يدافعون به عن أنفسهم. وبعض الأفراد ممّن كانوا على صلة بالمنظمات الفدائية، أخذوا يتجولون بين الناس وهم يحملون رشاشات كارلو، أو البنادق التي حصلوا عليها عند توزيعها في بلدية نابلس في اليوم السابق.

قبل ظهر ذلك اليوم تداعى عدد من الشخصيات الوطنية والناشطين السياسيين إلى اجتماع في مصبنة حافظ طوقان للتداول فيما يمكن عمله، وكان ضمن الحضور رئيس البلدية حمدي كنعان، وحافظ طوقان، وعزت العالول، وصلاح الدين العنبتاوي، وفيصل كنعان، وفيصل كمال، ولطفي الزغلول، ونايف أبو صفية، وعلي الخليلي، وأنا وآخرون لم أعد أذكرهم، وبعض المذكورين أو المشاركين الآخرين توفاه الله، بينما لا يزال البعض الآخر في قيد الحياة. تداولنا فيما يمكن عمله، إزاء الاحتمالات التي باتت مؤكدة باحتلال نابلس، واقترح البعض أن نجنّب المدينة الدمار وعبث الاحتلال، وأن يتم استسلامها رسمياً، لكن الأكثرية رفضت هذا العار لمدينة نابلس المعروفة تاريخياً بمقاومة المحتلين، والتي استحقت بذلك، وعن جدارة، لقب جبل النار، إذ يستحيل على مَن تحمل هذا اللقب الذي يشرّفها، أن تستسلم، فاتفق رأي المجتمعين على تنظيم المقاومة في المدينة مهما تكن النتائج. وأذكر أني قلت للمجتمعين: "يمكننا أن نقيم فخاخاً من الألغام في الطرق المتوقع أن تسلكها القوات الغازية، وأن ننشر بعض المقاومين على هذه الطرق، كي يتصدوا لها ويعوقوا تقدمها على الأقل، لكننا نحتاج للقيام بذلك إلى متفجرات، كما أن الإخوة من المتدربين من المنظمات الفدائية سيقومون بنصب هذه الفخاخ." قال أحد الحاضرين: "يمكن إحضار كمية من المتفجرات الموجودة في قيادة المقاطعة (مركز تجمع الإدارات الحكومية) شرقي نابلس"، فوافق الجميع على اقتراحه، وعلى الفور جهزنا سيارتين للذهاب إلى قيادة المقاطعة: سيارة صلاح العنبتاوي وسيارة فيصل كنعان، بمرافقة عدد من الإخوة الحاضرين، منهم أنا وعزت العالول ولطفي الزغلول وفيصل كمال، وآخرون.

غادرنا مصبنة حافظ طوقان التي تقع في قلب مدينة نابلس إلى جانب ما يُعرف حالياً بالدوّار، واتجهنا شرقاً إلى قيادة المقاطعة عبر شارع الملك فيصل. ولم نكد نتخطى المقبرة الشرقية، ونصل إلى أمام مخرطة رِنُّو، حتى فوجئنا بثلاث مدرعات تقف في وسط الشارع على شكل مثلث وتقطع الطريق. كان العشرات من المواطنين واقفين على جانبَي الشارع، من دون أن تتعرض لهم المدرعات، ومن دون أن يدركوا، على ما يبدو، حقيقتها. كنت في السيارة الأمامية، فتوقفنا لدى مشاهدتنا المدرعات، والبعض ممّن كان في السيارة صاح بفرح: "هذه قوات عراقية"، لكن ما هي إلاّ لحظات حتى صحت وقلت: "هذه مدرعات إسرائيلية، انظروا إليها، ترون على مقدمتها حرف 'تصادي' العبري الذي يرمز إلى الجيش الإسرائيلي 'تساهل'"، فقد كنت أعرف القليل من اللغة العبرية التي درستها من خلال دراستي للتاريخ في جامعة دمشق. كان هول المفاجأة علينا كبيراً، فأشّرنا إلى السيارة التي خلفنا بالرجوع، وعندما حاولت سيارتنا الرجوع، وجّه الجنود الإسرائيليون أسلحتهم نحونا طالبين منا النزول من السيارة، والوقوف إلى جانب الطريق وعدم التحرك. نزلنا جميعاً من السيارتين ووقفنا على جانبي الشارع، مع الواقفين من المواطنين.

دقائق قليلة مرت، وإذا بالوضع ينفجر من حولنا، إذ انطلقت صليات من رشاشات المدرعات لا أدري إلى أين كانت توجه نيرانها، ثم سمعت دوي انفجار قوي علمت فيما بعد أنه قذيفة دبابة أصابت مبنى البنك العربي على الدوّار. انتهزت هذه الجلبة وغادرت موقعي راكضاً في الاتجاه الذي يؤدي إلى داخل المدينة، وظللت أمشي والذهول يسيطر عليّ حتى وصلت إلى باب الساحة... هدّأت نفسي قليلاً، على الرغم من أن حالة الذهول لم تفارقني، لأني لم أكن أتوقع قدوم قوات الاحتلال من الشرق.

سيطرتُ على ذهولي، وبدأت أستوعب الوضع. نظرتُ حولي، المحلات فاتحة كعادتها، وحركة المواطنين عادية لا يدرون ما يدور على مقربة منهم، وأن القوات الإسرائيلية باتت في المدينة. تركت الناس بحالهم من دون أن أزعجهم أو أثير هلعهم، وواصلت سيري في اتجاه الفرن حيث كان إخوتي يعملون. كانوا كالعادة منكبين على عملهم يتمازحون ويضحكون. شقيقي حسن بادرني بالسؤال: "هل صحيح أن القوات العراقية باتت في نابلس، وأنها تتوجه نحو الحدود؟" كدت أنفجر من القهر والألم، لكني وجدت نفسي أضحك، وقلت له والابتسامة تعلو وجهي: "يبدو يا أخي أن هذه هي الكذبة الكبيرة التي انطلت علينا جميعاً، لا قوات عراقية ولا مَن يحزنون. ما شاهده الناس وما شاهدته أنا، هو قوات إسرائيلية وليس قوات عراقية، والقوات الإسرائيلية الآن في قلب مدينة نابلس تقف في منتصف شارع الملك فيصل وستتقدم إلى داخل المدينة. حاولوا أن تنهوا عملكم سريعاً وعودوا إلى

البيت، لأن الطائرات الإسرائيلية تجوب سماء المدينة وتطلق رشاشاتها على المارة." وطلبت من إخوتي الصغار، محمد وفرج وعطا الله، الذين كانوا في الفرن التوجه إلى البيت فوراً، وأن يتجنبوا المرور في الشارع الرئيسي خوفاً من الطائرات التي تجوب سماء المدينة، وأن يسلكوا الطرق الفرعية.

وما إن سمع كلامي أحد الأشخاص، وكان يحمل رشاش كارلو، حتى صاح في وجهي: "طابور خامس"، وكاد يطلق النار عليّ لولا أنني هدّأته، وقلت له بهدوء: "اذهب إلى شارع الملك فيصل لتتأكد من الأمر." أرخى سلاحه وغادر مسرعاً.

غادرت الفرن وتوجهت إلى شارع الشويترة لاستطلاع الوضع. بعض المسلحين القلائل كان يجوب الشارع، وبعض الدكاكين والمحلات بدأ يغلق أبوابه، لكن من دون هلع أو ذعر. خبر تقدم القوات الإسرائيلية بدأ ينتشر على ما يبدو، والناس بين مصدق وبين مَن لا يقدر أن يصدق. احتمال قدوم القوات العراقية لم يفارق مخيلة الناس، ربما كي يهربوا من أي شعور بأن كارثة ستحيق بهم، أو ربما تعلقاً بأمل باحتمال النصر، والعودة إلى بيوتهم مكللين برايات النصر، كما كانوا يتوقعون.

القوات الإسرائيلية استكملت تقدمها نحو وسط المدينة، وجرت اشتباكات محدودة مع بعض المقاومين في منطقة الجبل الشمالي (عيبال) حيث استشهد قسم منهم. وتقدمت دبابات إسرائيلية عن طريق طوباس، وتمركزت في منطقة المحاجر في جبل عيبال، وشرعت تُمطر القوات الأردنية المنسحبة والتي وصلت إلى وادي التفاح غربي نابلس بقذائفها، وكانت طائرتان إسرائيليتان تحومان في سماء المدينة وتغيران على القوات الأردنية التي تمت محاصرتها في وادي التفاح.

بعد ساعات قليلة عدت إلى البيت، ومن هناك شاهدت الدبابات الإسرائيلية المتمركزة في منطقة المحاجر في جبل عيبال، وهو الجبل المواجه لجبل جرزيم حيث يقع منزلنا. وكانت ثماني دبابات تطلق قذائفها على وادي التفاح بمؤازرة طائرتين إسرائيليتين كانتا تحومان في سماء المدينة. وجدت والدتي والنسوة جاراتها مجتمعات في البيت وهن يقرأن سورة ياسين، ويواصلن ترديد الآية، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (سورة يس، الآية ٩)، وذلك، كما قالت لي الوالدة لاحقاً: "لأن هذه الآية الكريمة دعاء لله تعالى كي يعمي عيون اليهود عن الجنود المحاصرين الذين كانوا يتعرضون لنيران شديدة من الدبابات الإسرائيلية المتمركزة في المحاجر، ومن الطائرات الإسرائيلية."

***

أكملت القوات الإسرائيلية احتلالها للمدينة، وأعلنت منع التجول، وطلبت عبر مكبرات الصوت التي جابت شوارع المدينة، أن يسلّم المواطنون سياراتهم في الصباح، وأن يتركوها والمفاتيح فيها في الساحة أمام مبنى قيادة المقاطعة، وكل مَن لا يسلم سيارته ستتم مصادرتها.

التقينا في المساء أنا والدكتور فيصل كمال والصديق نايف أبو صفية وأخي علي لتدارس الوضع وما يمكن عمله، وعبّرنا عن قلقنا إزاء احتمال ألاّ يكون أرشيف الاستخبارات الأردنية الذي يضم أسماء العديد من الناشطين السياسيين قد تم إتلافه، وأنه إذا ما استولت عليه القوات الإسرائيلية فإنها قد تقوم بحملة اعتقالات استباقية احتياطاً. وعليه قررنا الصعود إلى الجبل، والمكوث هناك بعض الوقت إلى أن تتضح الأمور.

أخذنا طريقنا في جبل جرزيم في اتجاه قرية بورين التي كان لنا فيها بعض الأصدقاء الذين يمكن أن نمكث عندهم بعض الوقت، وكان معي بندقية "جي ٣" التي حصل عليها أخي حسن عند توزيع البنادق على المواطنين. واصلنا سيرنا في الجبل صعوداً وفي اتجاه الشرق، وبينما كنا نأخذ قسطاً من الراحة،

شاهدنا خيالات تتحرك أمامنا، فلم نميزها في العتمة التي تغطي المنطقة، لكن سرعان ما ميزناهم، وعرفنا أنهم جنود أردنيون. صحنا بهم: "لا تخافوا نحن أصدقاء"، فاقتربوا منا وعرفنا أنهم من الجيش الأردني، وكانوا متعبين وطلبوا أن ندلهم على الطريق إلى الضفة الشرقية. رحّبنا بهم، وعرفنا منهم أنهم من القوات الأردنية التي حوصرت في وادي التفاح. ودّعناهم بكل حب وأرشدناهم إلى الطريق. مكثنا في الجبل حتى الصباح، وخلال مكوثنا أعدنا النظر في قرارنا بالذهاب إلى بورين، ورأينا أن من الأفضل أن يعود كل منا إلى موقعه، وأن نبدأ بتنظيم المقاومة ضد القوات الإسرائيلية المحتلة.

في الصباح عدنا. نزلنا من الجبل إلى قرية تِل، وتوجهنا من هناك إلى منزلنا الذي يقع على أول الطريق إلى القرية، وعلى بعد نحو ثلاثة كيلومترات منها. القوات الإسرائيلية، على ما يبدو، لم تنتشر خارج المدينة بعد. عندما وصلنا إلى منزلنا شاهدنا الجنود الإسرائيليين يجولون في ساحة مبنى كلية النجاح الذي يقع على بعد عشرات الأمتار من منزلنا. الرفيق نايف أبو صفية توجه إلى منزله القريب، أمّا الدكتور فيصل كمال فذهب إلى مستشفى الدكتور أحمد الطاهر حيث يعمل، والذي يقع على بعد أمتار قليلة من منزلنا.

حالة من الذهول والألم تسيطر على الجميع. والدتي بدت مشغولة بمصير ابنها الأمين الذي استُدعي إلى الخدمة قبل الحرب بأيام قليلة، وسألتْ إذا ما عرفنا عنه شيئاً، فقلت لها: "لا تقلقي يمّه، إن شا الله هو بخير، وسأستقصي أخباره من بعض رفاقه الذين كانوا معه، والذين عادوا من الجبهة." عندما تأكدت أن ثمة احتمالاً كبيراً في أنه موجود في الأردن، تسللت بعد أيام قليلة من الاحتلال إلى هناك حيث تقصيت الأخبار عنه في عمّان، فعرفت أنه موجود في معسكر "خَوْ" قرب مدينة الزرقاء، فذهبت إلى هناك والتقيت به، واستحصلت له من الضابط المسؤول على إجازة لـ ٢٤ ساعة. بعد ذلك، تسللت وإياه ليلاً عائدين إلى نابلس.

بعد نزولنا من الجبل، بدأت مع بعض الأصدقاء والرفاق القدامى من حركة القوميين العرب، نتابع مجريات الأمور ونناقش ما يمكن أن نقوم به لمقاومة الاحتلال. وفي لقائي مع عدد من الأعضاء السابقين لحركة القوميين العرب، قررنا إعادة تنشيط جميع الرفاق، والاتصال بهم مجدداً لتنظيم بعض أشكال المقاومة الشعبية، حتى لو بأشكالها الأولية التعبوية ضد الاحتلال. وشكلنا لجاناً للمعلمين كان من ضمنها أنا والمربية يسرى صلاح والمربية نوال التيتي ونايف أبو صفية وآخرون، وأصدرنا أكثر من بيان باسم لجان المعلمين، دعونا فيها الجماهير إلى مقاطعة المحتلين الذين أخذوا يتوافدون بأعداد كبيرة إلى مدن الضفة الغربية، علاوة على توجيهات تعبوية، وحضّ للجماهير على الصمود، وأن مصير الاحتلال لن يكون إلاّ إلى زوال. كما تم تكليفي بالذهاب إلى عمّان وإجراء الاتصال بقيادة حركة القوميين العرب في الخارج، بعد أن كنت ورفاق آخرون قد قطعنا صلتنا بالحركة بعد اعتقالات سنة ١٩٦٦.

تسللت إلى عمان للمرة الثانية في أواخر تموز/يوليو ١٩٦٧، حيث التقيت بعدد من أعضاء الحركة، منهم الرفيق مصطفى الزبري (أبو علي مصطفى) الذي كان قد استقر في عمّان وفتح مطعماً صغيراً في جبل اللويبدة. لم يكن أبو علي مصطفى قد حسم أمره، أو قرر ماذا يعمل، وخصوصاً أنه كان قد قطع صلته بالحركة مثل آخرين كثيرين بعد اعتقالات سنة ١٩٦٦، فتشاورنا في الأمر، وفي ماذا يمكن عمله في ظل الأوضاع الجديدة، واتصلنا برفاق آخرين من أعضاء الحركة، واستقر الرأي على ضرورة معاودة الاتصال بقيادة الحركة في لبنان والوقوف على توجهاتها، وما يمكن عمله لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي.

عدت إلى نابلس على أن أعود بعد أيام قليلة إلى عمّان مرة أُخرى، فالتسلل عبر الحدود كان حتى

ذلك الوقت سهلاً، ذلك بأن القوات الإسرائيلية المحتلة لم تكن قد أحكمت قبضتها على الحدود بعد، وكان كثيرون ممّن كانوا في الخارج قد بدأوا يفدون إلى عمّان، ثم يتسللون عائدين إلى أهاليهم. كنا خلال العودة نعبر نهر الأردن ليلاً من مناطق مياهها ضحلة بواسطة جرار زراعي أو مشياً، ونمكث بعض الوقت حتى الصباح الباكر في إحدى المزارع القريبة، أو نواصل المشي ليلاً إلى أقرب قرية في وادي الفارعة، ومنها نأخذ إحدى السيارات إلى نابلس وغيرها من المدن والقرى.

بعد عودتي إلى نابلس، جددت الاتصال بالرفاق، وأعلمتهم بما جرى معي، واتفقنا على تشكيل قيادة موقتة مني ومن عدد من الرفاق الآخرين، من أجل إعادة الاتصال بباقي الرفاق وتنظيم أوضاعهم. وخلال وجودي في نابلس وصلتنا أخبار بأن عدداً من الطلبة الذين يدرسون في الخارج بدأوا يتوافدون إلى عمّان بناء على تعليمات من قيادة الحركة، لتدريبهم وإعدادهم للعمليات المسلحة التي ستباشرها الحركة قريباً، كما علمنا أن قيادة الحركة طلبت من ضباط وكوادر من جيش التحرير الفلسطيني ممّن كانوا على صلة بها، التوجه إلى الأردن للغاية ذاتها.

كان الرفيقان أحمد خليفة وفيصل الحسيني من أوائل الوافدين إلى الداخل، وقد أقاما في القدس، فتوجهت إلى هناك حيث التقيت بهما، وتباحثنا في الأوضاع المستجدة وما يمكن عمله لإعادة بناء تنظيم الحركة والإعداد للمرحلة الجديدة.

... وهكذا بدأ مسار جديد في الأراضي المحتلة، كان له عنوانان: الصمود ومقاومة الاحتلال. ■

حزيران بلا قتال

طلال عوكل*

كيف سقطت غزة بلا قتال

السؤال عن التفصيلات اليومية لمجريات الأوضاع في قطاع غزة، خلال حرب ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧، يعتريه كثير من النواقص، وربما عدم الدقة. والأسباب تعود إلى صعوبة الوصول إلى المعلومة بسبب محدودية الوسائل، إذ كان المذياع القديم الأشبه بالصندوق هو الوسيلة المتوفرة لدى القليل من ميسوري الحال، فضلاً عن جريدة "فلسطين" التي تفتقر إلى وسائل نقل الخبر السريع، وعن محدودية وسائل النقل العامة وارتفاع تكلفة استخدامها قياساً بمستوى المعيشة، وأيضاً غياب الحاجة إلى الانتقال من مكان إلى آخر في قطاع غزة المعروف بمحدودية مساحته. والناس في قطاع غزة لا يثقون بالأخبار التي كان ينقلها راديو إسرائيل، وثقتهم تكاد تكون عمياء بمذيع إذاعة "صوت العرب" الشهير أحمد سعيد الذي كان صوته الجهوري يقدم صورة مغايرة لما تقدمه الإذاعة الإسرائيلية، ولما كان عليه الواقع فيما يتعلق بمجريات الحرب.

ولا يزال سكان القطاع ممّن عاصروا تلك الفترة يتذكرون جملة أحمد سعيد التي تنضح بالثقة حين كان يقول: "سنلقيهم في البحر، ونطعمهم لأسماكه"، فسكان قطاع غزة، و٧٠٪ منهم من اللاجئين، لم تساورهم الشكوك ولا للحظة واحدة، في أن العرب سينتصرون على إسرائيل، وأن كلاً منهم سيعود إلى بيته ومزرعته.

الأوضاع العسكرية عشية الحرب

قطاع غزة المحدود المساحة (٤٠ كم طولاً، ومتوسط ٩ كم عرضاً)، كان خالياً تقريباً من الوجود العسكري المصري، إلاّ من بعض الضباط والمستشارين إلى جانب الحاكم العام. فالوجود العسكري لم يتجاوز بضعة آلاف من المتطوعين في قوة حرس حدود فلسطينية تشكلت في سنة ١٩٥٤، وبضع مئات من الشرطة، وكتيبة الفدائيين التي كان يُرمز إليها بـ "ك ٤٨"، والتي شكّلها مصطفى حافظ في سنة ١٩٥٥، ولا يتجاوز عدد أفرادها بضع مئات، وكانت تقوم بعمليات استخباراتية وقتالية محدودة داخل فلسطين المحتلة منذ سنة ١٩٤٨. أمّا تسليح كتيبة الفدائيين فكان عبارة عن رشاش بور سعيد (كارلو غوستاف)، بينما كان تسليح الجيش

* كاتب فلسطيني.

عبارة عن مجموعة أسلحة فردية خفيفة تتكون من بندقية إنجليزية، وسْتِن إنجليزي، وبْرن إنجليزي.

بعد إعلان تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية، وإعلان فتح باب التطوع، أُدخلت أسلحة جديدة من بنادق الكلاشينكوف، وبندقية تشيكية نصف آلية ورشاش غرينوف، وعدد قليل من رشاشات الدوشكا، وعدد آخر محدود من مدافع الهاون. أمّا الآليات فلم يكن يوجد منها على الأرجح أكثر من خمس دبابات من نوع "تي ٥٤"، وأذكر ذلك لأنني شاهدت واحدة منها، وهي تربض من دون حراك وسط بساتين البرتقال شرقي منطقة جباليا.

حالة السكان المعنوية

قبل اندلاع الحرب بأسابيع قليلة، بدا قطاع غزة كخلية النمل، إذ توافد مئات، بل آلاف الشباب، على مراكز التطوع، من دون أن يكون لدى السلطات إمكان للاستيعاب بسبب ضعف البنية العسكرية، وقلّة السلاح، ومحدودية الإمكانات التدريبية.

المراكز المكلفة استقبال المندفعين نحو التطوع، كانت تحمل مئات الشباب في شاحنات مكشوفة إلى بعض المواقع العسكرية المتقدمة لحفر الخنادق، مع أن هؤلاء لم يلاحظوا وجود تشكيلات تشير إلى أن هناك جيشاً، ومظاهر عسكرية تدل على إمكان التصدي لعدوان محتمل. الحماسة وحدها كانت تسيطر على الغزّيين الذين كانوا مستعدين للتصدي بوسائل بدائية، كما حدث في بور سعيد والسويس خلال العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦.

غير أن ضعف المظاهر العسكرية القتالية لم ينل من ثقة الناس بنظام الرئيس الراحل عبد الناصر الذي حظي بشعبية طاغية في القطاع، في مقابل استصغار لشأن إسرائيل وقدراتها العسكرية؛ كان لسان حال الناس يقول: من أين لثلاثة مليون يهودي أن ينتصروا على أكثر من مئة مليون عربي؟ بدت هذه المعادلة كأنها بعض من زمن حروب السيف والرمح، وإقرار بتاريخ غابر يعتز به الفلسطينيون كما العرب بماضٍ تليد، لا تساورهم الشكوك في صحته.

يوميات الحرب

فجر الاثنين الخامس من حزيران/يونيو ١٩٦٧، بادرت إسرائيل إلى شن غارات جوية مكثفة على القواعد الجوية وقواعد الصواريخ، وأسلحة الدفاع الجوي المصرية، ودمرت عشرات الطائرات، ومرابض المدفعية والصواريخ. مرّ بعض الوقت قبل أن تستفيق القيادة المصرية من هول الضربة، وحجم الخسائر التي تكبدتها وجعلت الجيوش العربية في حالة دفاع عن النفس، لا تكاد تستطيع لملمة صفوفها، واتخاذ وضعية الاشتباك الفاعل.

على أن الناس في قطاع غزة لم يقفوا على هذه التفصيلات المرعبة، إذ ظل أحمد سعيد يصدح بلغة المنتصر والقادر على إلحاق هزيمة مرّة بإسرائيل. الأوضاع في قطاع غزة بدت هادئة إلى حد كبير، فالقوات الفلسطينية الموجودة لا تملك القدرة على رد عدوان استخدمت فيه إسرائيل الدبابات والمدفعية الثقيلة، وخلال الأيام الأولى شاهد الناس عدداً قليلاً من طائرات المستير الإسرائيلية، وهي في طريقها إلى القيام بهجمات قتالية في سيناء. وخلال الأيام التي استغرقتها الحرب، لم يظهر في سماء قطاع غزة سوى طائرة هليكوبتر واحدة، حلقت على علو منخفض في شمال قطاع غزة، الأمر الذي يعني أن إسرائيل تعرف تماماً أن الأسلحة الموجودة في حيازة جيش التحرير الفلسطيني لا

تستطيع التعامل حتى مع مروحية على مستوى منخفض جداً. أحد أفراد الشرطة الفلسطينية، وكنت إلى جانبه، رفع مسدسه، وأطلق بضع طلقات على المروحية، لكن طاقمها لم يردّ على إطلاق النار، وفضّل مواصلة طريقه من دون أن يشعر بوجود أي تهديد. ليس للصبية الذين تجمعوا حول الشرطي وأنا بينهم، أن يعرفوا بأن المسدس ليس أكثر من لعبة، لكن الحماسة والروح المعنوية العالية جعلتهما يشعرون بالكبرياء، وبشيء من نشوة النصر الذي ظل أحمد سعيد يبشرهم به.

الاشتباكات التي وقعت بين جنود جيش التحرير والقوات الإسرائيلية كانت محدودة، والأهم منها ما وقع على دوار خان يونس، على الطريق العام الذي يربط شمال القطاع بجنوبه، وعلى تلة المنطار، وهي تقع شرقي ميدنة غزة وتشرف على محور ناحال عوز الذي يقع شرق خط الهدنة، وموقع البوليس الحربي ويقع شمالي مدينة غزة، وبالقرب من وادي غزة.

في كل من هذه المواقع الثلاثة، كان ثمة شاهد عيان، من أقربائي، روى ما وقع.

على دوار خان يونس كانت القوة الفلسطينية محدودة العدد والعدة، وكان أفرادها يتحصنون في خنادق قاموا بحفرها بمساعدة الشباب قبل الحرب. على الطريق العام تقدمت دبابات إسرائيلية كانت تحمل العلم الجزائري، في محاولة للتمويه. كاد الجنود يقعون في الفخ، ويخرجون من خنادقهم لاستقبالها، غير أن أحدهم سمع أحد الجنود وهو يتحدث باللغة العبرية عبر اللاسلكي، ففتحوا عليها نيران رشاشاتهم الخفيفة. تراجعت الدبابات مسافة ليست بعيدة ثم عادت تفتح نيران مدافعها على مَن كانوا في الموقع، الأمر الذي أدى إلى اشتباك محدود اضطرت معه القوة الفلسطينية إلى الانسحاب وإخلاء الموقع.

في تلة المنطار، كان الجيش الفلسطيني يملك مدفع هاون؛ وبعد أن أطلق بضع قذائف على هدف غير مرئي، ورداً على قذائف أطلقها الجيش الإسرائيلي، انتهت المعركة من دون أن يحدث اشتباك مباشر، لأن القوة الإسرائيلية كانت محمولة، ومن دون أن تتوفر للمدافعين الإمكانات التسليحية القادرة على التعامل معها.

الأمر لم يختلف على محور البوليس الحربي، إذ تقدمت القوات الإسرائيلية بالدبابات، ولم يتسنّ لجنود جيش التحرير التعامل معها.

نلاحظ في مواقع الاشتباك كلها أن جيش التحرير الفلسطيني لم يكن يملك أسلحة مضادة للدروع. وبالمحصلة فإن قطاع غزة سقط عسكرياً من دون أي مقاومة حقيقية تُذكر، أو اشتباكات ذات تأثير في القوات الإسرائيلية التي تقدمت لاحتلاله، بعد أن قامت القوات الإسرائيلية بضرب مواقع الجيش المصري، وتقدمت بسرعة في صحراء سيناء.

تفصيلات صغيرة

لي صديق يكبرني بعام واحد، كان قد استلم بندقية نصف آلية، مع مجموعة من شباب المنطقة. موقع الخدمة كان يفترض أنه غربي مدينة غزة، حيث يقع مركز التموين التابع لوكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا)، وعلى مسافة لا تتجاوز ١٠٠ متر عن شاطئ البحر.

يقول أنه ومجموعته ذهبوا في اليوم الأول للحرب، إلى مدرسة فلسطين، وسط مدينة غزة، كي يحصلوا على ذخيرة، ويضيف أنهم قابلوا عميداً مصرياً يلبس جلابية بيضاء ويجلس خلف طاولة، فأخذوا حاجتهم منه، ثم عادوا إلى حيث يفترض أن يكون موقع خدمتهم.

ويتابع: وصلنا إلى المكان فإذا بأحدهم يلفت انتباهنا إلى وجود دبابات إسرائيلية تتحرك في الشارع العام، فتفرقنا وعدنا إلى منازلنا.

وفي اليوم التالي غادروا عبر المراكب نحو مصر. من الواضح أن كثيراً من الضباط والجنود، وحتى بعض المدنيين، هربوا من القطاع عبر البحر، فقد كانت سيناء مسرح حرب، وثمة مخاطر من اجتياز مسافة طويلة في الصحراء، فضلاً عن أن البحر كان أكثر أمناً، إذ خلت السواحل من وجود قطع حربية إسرائيلية، ولم يكن من داعٍ عسكري لوجودها على شواطىء القطاع.

شهادة شخصية

كنت في السابعة عشرة من العمر حين وقعت الحرب، وأسكن في مخيم جباليا للاجئين. ومع أنني أنهيت الصف الحادي عشر، ومن المواظبين على الدراسة، إلاّ إنني مثل أبناء جيلي، لم نكن نملك من المعارف عن الحياة والعالم الخارجي، عالم ما بعد غزة، أي شيء. فعلى سبيل المثال، لم نكن نعرف عن وجود شيء اسمه الكهرباء، أو مثلاً أن الإنسان في بلده يملك جواز سفر. إمكانات التواصل حتى مع المجتمع المحلي كانت محدودة بالاتصال الشخصي المباشر، أو من خلال ما تتناقله الألسن، من دون أن يكون لذلك أي أثر في تنمية المعارف.

كان يوم الاثنين ـ حين وقعت الحرب ـ يوماً عادياً، باستثناء أن المناخ العام متوتر وطافح بالحماسة بعد أن سمعنا ما تتناقله الألسن عن وقوع الحرب من دون أن نشعر بها.

في اليوم التالي أخذتني الحمية مع صديق من الجيران، للذهاب إلى حي الزيتون في مدينة غزة، للاطمئنان عن عمي الذي يسكن مع عائلته هناك. لم نكن نملك أي وسيلة للوصول، أو أي إمكان مادي، فذهبنا عبر البساتين التي نعرفها جيداً كوننا نقضي معظم أوقاتنا خارج الدراسة في شوارعها وبين أحضانها.

المسافة التي كان علينا بلوغها لا تزيد على خمسة كيلومترات، لكنها استغرقت يومين كاملين من دون أن نصل إلى هدفنا. كانت الشوارع والبساتين خالية من أي حركة للبشر إلاّ ما ندر، وعندما وصلنا إلى منطقة المحطة، وهي تقع في منتصف المسافة تقريباً، بدأنا نسمع أصوات إطلاق نار متفرقة. سألنا بعض سكان المنطقة، فحذرونا من أن اليهود وصلوا إلى حيّي الشجاعية والزيتون.

كان صعباً علينا التقدم أو العودة بسبب أصوات الرصاص. حلّ الظلام، ونحن في أحد بساتين البرتقال، وكانت أصوات إطلاق النار تقترب كأن الجيش الإسرائيلي شرع يمشّط المنطقة، لكننا اكتشفنا أن هذا كان بهدف ملاحقة وتخويف الجنود الفارين الذين يختبئ بعضهم في بساتين المنطقة. مكثنا الليلة بطولها عند ناطور البستان الذي خبّأنا في غرفة مضخة المياه، وفي الصباح قررنا العودة.

في الطريق إلى جباليا، أخذنا نسمع أصوات انفجارات ضخمة تصدر عن قصف مدفعي للمخيم. قابلنا شخصاً قادماً من أطراف المخيم، وقال حين سألناه إن المخيم كله تم تدميره. لم يكن أمامنا خيار سوى أن نقرر العودة إلى المخيم، فالموت مع الجماعة رحمة، ولأن الأفضل أن تربط مصيرنا بمصير عائلاتنا وأهلنا.

تسللنا بين البساتين، ووصلنا إلى مدارس الأونروا التي تقع بيوتنا إلى جوارها. انتهت الرحلة، لنجد أنفسنا في شوارع المخيم، وفوجئنا حين رأينا أن البيوت على حالها، إذ لم نرَ بيتاً واحداً مدمراً. وفي وقت لاحق عرفنا أن عدداً قليلاً من البيوت أصابته القذائف، فهدف القصف كان إدخال الرعب

في نفوس الناس تمهيداً لدخول الجيش الإسرائيلي.

ظن أهل البيت المجتمعون قلقاً بشأني، أنني استشهدت، أو أن اليهود قبضوا عليّ، وكانت الفرحة لا توصف، وخصوصاً أن أخي الأكبر عاد هو الآخر، وكان جندياً متطوعاً في موقع دوّار خان يونس الذي خاض الاشتباك.

في يوم الجمعة، أي اليوم الخامس للحرب، انتشرت الآليات العسكرية الإسرائيلية في المخيم، وراحت عبر مكبرات الصوت، تطلب من الرجال من عمر ١٦ عاماً وما فوق، التجمع فيما يُعرف بـ"جورة أبو راشد" وسط المخيم. لم يتوقف إطلاق الرصاص في الهواء، وبعد أن انتهت عملية التجميع، خاطب أحد الجنود عبر مكبرات الصوت، الجمع الغفير، مطالباً الفدائيين والجنود بتسليم أنفسهم. النداء كان يطلب من الناس أيضاً الاعتراف على مَن لا يسلّمون أنفسهم من المطلوبين، لكن أحداً لم يسلّم نفسه، ولم يعترف على آخر.

في تلك الأثناء كانت دوريات راجلة للجيش الإسرائيلي تقوم بتفتيش المنازل بيتاً بيتاً بحثاً عن السلاح، وعن الذين لم يستجيبوا لنداء مكبرات الصوت. وبعد ساعات طلب المكلّف بنقل الأوامر عبر مكبرات الصوت من الجميع العودة إلى بيوتهم، وعدم الخروج منها، معلناً فرض حظر التجول. كانت حال المناطق الأُخرى مشابهة لحال مخيم جباليا، إذ طُلب من الرجال التجمع في أماكن معينة لسماع الأوامر نفسها.

استمر نظام حظر التجول لأيام يتخللها ساعات محدودة للحركة، كجلب بعض الحاجات من السوق، أو تمكين النساء من ملء جرارهن من صنابير المياه التي أنشأتها الوكالة، وكانت عامة، مثلما هي الحال بالنسبة إلى المراحيض التي كانت هي الأُخرى عامة، إذ كان يخصص في كل حارة واحد للرجال، وآخر للنساء.

في تلك الأثناء، أقام الحاكم العسكري الإسرائيلي في مقر الحاكم العسكري العام في قطاع غزة، والذي هو اليوم مقر المجلس التشريعي الفلسطيني.

هكذا انتهى الأمر باحتلال قطاع غزة، لتبدأ مرحلة جديدة من المقاومة الشعبية التي جعلت الجيش الإسرائيلي يكرر فرض نظام حظر التجول مرات ومرات. وبطبيعة الحال لم تكن أيام حظر التجول من دون إغارات للدوريات من الجيش على بعض البيوت، واعتقال مَن تتوفر لديها معلومات عن نشاطاتهم، وفي كثير من المرات كان الجنود يعبثون بأثاث البيوت، ويتعاملون بفظاظة مع النساء والأطفال. ■